بسم الله الرحمن الرحيم

علوم اللغة

دراسات علمية محكّمة تصدر أربع مرات فى السنة

كتاب دورى

مج٨، ع١، ٢٠٠٥

ⓒ حقوق الطبع والنشر محفوظة، ولا يسمح بإعادة نشر هذا العمل كاملا أو أى قسم من أقسامه، بأى شكل من أشكال النشر أو استنساخه أو ترجمته، أو اختزانه فى أى شكل من أشكال نظم استرجاع المعلومات، إلا بإذن كتابى من الناشر.

قيمة الاشتراك السنوى:

٨٠ جنيها مصريا (داخل جمهورية مصر العربية)

٨٠ دولارا أمريكيا (خارج جمهورية مصر العربية شاملا البريد)

سعر العدد:

٢٠ جنيها مصريا (داخل جمهورية مصر العربية)

٢٠ دولارا أمريكيا (خارج جمهورية مصر العربية شاملا البريد)

أسعار خاصة للطلبة

المراسلات

توجه جميع المراسلات الخاصة إلى:

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب (٥٨) الدواوين - القاهرة ١١٤٦١ القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

المحتويات

البحوث	الصفحة
الإشارة فى العربية والعبرية (دراسة لغوية مقارنة)	٩
د. حامد ابن أحمد سعد الشنبرى	
الاستئناف فى كتاب سيبويه (درس فى النحو والدلالة)	٣٧
د. حسن عبد المقصود	
ظاهرة «بلى الألفاظ» بين أصولها التراثية والدرس اللغوى الحديث	٧٩
د. أحمد إبراهيم هندى	
إسناد الفعل الأجوف إلى الضمائر	٢٠٧
د. قبارى محمد شحاتة	
نقل الحركة فى الصحيح	٣٥٥
د. وسيمة عبد المحسن المنصور	

الاستئناف في كتاب سيبويه درس في النحو والدلالة

د/ حسن عبد المقصود

كلية التربية - جامعة عين شمس

احمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحابته والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد،

فقد عايشت كتاب سيبويه طويلا، بدأت رحلتي معه منذ ربع قرن من الزمان تقريبا، حين التحقت بقسم اللغة العربية في تربية الزقازيق عام ١٩٨١، واستمرت هذه العلاقة، أو الصداقة إن أردت الدقة إلى يومنا هذا، وأنعم به من صديق.

قرأت كتاب سيبويه، وأنا غض، في أوائل دراستي الجامعية، ففهمت منه أشياء، وغاب عني الكثير، ثم قرأته بعد ذلك، وأنا أشق طريقي في الدراسات العليا، فكان أيسر من ذي قبل، ثم لم يفارقني، ولم أفارقه، معي في حلي وترحالي، مع كل مسألة، ومع كل مشكلة أراه صديقا ودودا، لا يمل كما قال له أستاذه الخليل: مرحبا بزائر لا يمل، وهذه حقيقة، فمن نعود على قراءة كتاب سيبويه، لا يستطيع أن يتركها، ولو اتهم بأنه لا يفهم سيبويه.

قرأت كتاب سيبويه للتعلم، وقرأته للمتعة، وقرأته للبحث العلمي، لم أقرأ منه أفكارا جزئية كما يفعل الكثير، ولكنني قرأته كله مرارا. ولاحظت فيه، مع وعورة المسلك، صدق النية، فتعلمت ألا أعبأ بالعقبات، وما يصعب علي اليوم يسهل غدا، وما أحرم منه اليوم يأتيني في غدي، مادام مقدرا لي، هذا فوق ما تعلمته منه من نحو ولغة.

لاحظت أن في كتاب سيبويه أسسا ومبادئ تم تطويرها بصورة ما من الصور، وأصبحت تمثل مدارس لغوية، أو مذاهب نقدية حديثة يشار إليها بالبنان، وننسى جميعا من أسس لهم البنيان، فقررت؛ ردا للجميل وحفظا له، وتجلية للحقائق، أن أقدم عدة دراسات في كتاب سيبويه، تكشف عن موقع الفكر العربي اللغوي من المذاهب الحديثة، فقدمت (الحذف في كتاب سيبويه في ضوء المناهج اللغوية الحديثة)، وهأنذا أقدم اليوم (القطع والاستئناف في كتاب سيبويه: درس في النحو والدلالة) بينت فيه جهد هذا

اللغوي في معالجة هذه القضية الخطيرة، وثبت من خلال البحث إدراك سيبويه وظيفة الرسالة، ومقامات القول، وموقع السياق في التحليل الدلالي وغير ذلك كثير على نحو مما عرضت في هذا البحث.

لا تكاد توجد دراسات سابقة عرضت موضوع: القطع والاستئناف: درس في النحو والدلالة، نعم هناك نظرات داخل كتب النحو، والبلاغة تحدثت عن القطع والاستئناف، أو الفصل والوصل، لكن تبقى هذه دراسة أولى في حدود معلوماتي. المصدر الأساسي لهذه الدراسة هو كتاب سيبويه.

انقسم البحث قسمين الأول الإطار النظري، والثاني الجوانب التحليلية، سبقت القسمين مقدمة وتمهيد، وتلتهما خاتمة، فالمقدمة تناولت أهمية البحث، وأهدافه، وأقسامه، والدراسات السابقة، والمصادر الأساسية للبحث، والتمهيد تناول تحديد المصطلح الأساسي في هذا البحث وهو القطع والاستئناف، والقسم الأول، وهو الإطار النظري، تناول القطع والاستئناف بين التركيب والدلالة، واللغويين العرب والنظريات اللغوية الحديثة، والقطع والاستئناف والنظرة المعيارية، أما القسم الثاني، فقد ضم قطع المعرفة، وقطع النكرة، والحركة الإعرابية للفعل والدلالة الزمنية، والقطع والتتابع الزمني للأفعال، وانقطاع أم ثم جاءت الخاتمة وفيها سجلت أهم النتائج التي خرجت بها من خلال رحلتي الطويلة نسبيا مع كتاب سيبويه، وأتبعت البحث بقائمة للمصادر والمراجع.

وبعد فقد بذلت في هذا البحث جهدا كبيرا، ولا أبتغي من وراء هذا الجهد أن يخرج سيبويه من قبره ليشكرني، إنما أبتغي رضوان الله، وصلت الليل بالنهار من أجل أن يكون عملي هذا ناضجا، وتحريت فيه الدقة والوضوح، فإن جاء كما أبغي، فتلك نعمة أنعمها الله علي، وفضل منه ورضوان، وإن كبا بي الحظ، وضلت قدماي الطريق، وتشعبت بي السبل، فحسبي أن اجتهدت، وصدقت الله ما عاهدته عليه، من بذل الجهد، وصدق النية.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير

د. حسن عبد المقصود

تمهيـــد:

يعد القـطع والاستئناف من الموضـوعات المهـمة في الدراسـات النحوية الدلاليـة، حيث يرتبط تعدد المواقع الإعـرابية للكلمة الواحـدة بتعدد الدلالات لهذه الكلمـة، فكل موقع تأخذه اللفظة يـترتبُ عليه وجـود دلالة معينة تتـفق مع الموقع الإعرابي لهـا في سياقـها، والقطع يؤدي إلى تغـير الموقع الإعـرابي للكلمة، ومن ثم يؤدي إلى تـغير دلالة الكـلمة والجملة. وبادئ ذي بدء نحدد معنى القطع والاستئناف في اللغة، وفي الاصطلاح.

القطع في اللغة:

تدور معـاني كلمة القطع حول القَـدِّ والحَسْم والقَضْب، وكلهـا معان متـقاربة من المعنى الاصطلاحي لها، جـاء في العين ما يقـترب من هذا المعنى ففـيه: "قَطَعْـتُهُ قَطْعًا ومَـقْطَعًا فـانْقَطَعَ، وقَطَعْتُ النَّهْـرَ قُطُوعًا. والطَّيْـرُ تَقْطَعُ في طَيَـرانهـا قُطُوعًا، وهُنَّ قَـواطِعُ، أي: ذواهبُ ورَوَاجعُ.

وقُطِعَ بفُـلان: انْقَطَعَ رجـاؤه. ورجُلٌ مُنْقَطَعٌ به، أي: انْقَطَعَ به السَّـفَـر دونَ طيِّه ويُقـالُ: قَطَعَه. ومُنْقَطَعُ كُلِّ شَيْء حيث تَنْتَهي غايتُه[1].

وابن سـلام في غريبـه يذكر القـضب والحسم بمعنـى القطع، يقول: "والقَـضْبُ: القطع. ومنه قيل: اقْتَضَبْت الحديثَ إنما هو انتـزعته واقتَطَعْته[2]." ويقول أيضا: "فـالحسم أصله القطع ,ومنه قيل: حسمت هذا الأمر عن فلان ـ أي قطعته[3].

وفي اللسـان: "القَطْع: إبانة بعض أجـزاء الجِرْم من بـعض فَصْـلا، قطعه يـقطعه قطعـا، وقَطيعة، وقُطُوعا، قال:

فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى اسْتَبَان سِقَابُها قُطُوعًا لِمَحْبُوكٍ مِن اللِّيفِ حَادِرِ

والقطع مصدر. قطعت الحبل قطعا فانقطع، والمِقْطَع بالكسر: ما يقطعبه الشيء، وقطعه، واقتطعه فانقطع، وتَقَطَّع، مشدد للكثرة. و(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا[4] أي: تَقَسَّـموه،

---

(١) العين (قطع).

(٢) غريب الحديث لابن سلام ١/ ٣٢

(٣) غريب الحديث لابن سلام ٢/ ٢٥٧

(٤) سورة المؤمنون: من الآية ٥٣

قال الأزهري: وأما قوله: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً (فإنه واقع، كقولك: قطعوا أمرهم، قال لَبيدٌ في الوجه اللازم:

وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا

أي: انقطعت حبال مودتها، ويجوز أن يكون معنى قوله: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ(أي: تفرقوا في أمرهم(١).

القطع في الاصطلاح:

يطلق لفظ القطع في النحو ويراد به أن تنقطع الكلمة إعرابيا عما قبلها فلا تكون تابعا لمعمول قبلها، يقول الدكتور عبادة: "يراد به في النحو عدم ربط الكلمة بما قبلها في الإعراب، وتعد جزءا من جملة جديدة، ومن ذلك قطع النعت عن المنعوت، فلا يتبع النعتُ المنعوتَ، ويكون قطع النعت إما برفعه، على أنه خبر لمبتدإ محذوف وإما بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف، وذلك جائز في سياق المدح أو الذم أو الترحم(٢).

وبهذا يتقارب المعنى اللغوي، والمعنى الاصطلاحي للقطع في علم النحو، فكل منهما يعني الانقطاع التام والفصل الحاسم، وهذا التقارب في الدلالة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي أمر طبيعي؛ إذ لم تكن الحياة قد بلغ بها التعقيد درجة تجعل المصطلح يوضع بطريقة يخالف فيها بين الدلالة اللغوية والدلالة المصطلحية، لذلك فقد كانت دلالة القطع النحوية متقاربة من دلالته اللغوية.

الاستئناف في اللغة:

الاستئناف والائتناف هو الابتداء من غير سؤال؛ أو طلب، جاء في العين: " وائتنفُ ائتنافًا، وهو أوّل ما تَبْتدئُ به من كلِّ شيء من الأمْر والكَلام كذلك، وهو من أنْف الشَّيْء، يُقال: هذا أنْفُ الشَّدِّ، أي: أوّله، وأنْفُ البَرْدِ أوّله. وتقول: آنفْتُ فلانًا إينافًا فأنا مُؤْنِفٌ(٣).

---

(١) اللسان (قطع)

(٢) معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية ٢١١

(٣) العين (أنف)

وفي لسان العرب: "واستَأنَفَه بوعْد: ابتدأه من غير أن يسأله إيّاه؛ أنشد ثعلب:

وأنت المُنَى، لو كُنْت تستَأنفينَنا بوَعْد ولكنْ مُعْتَفاكَ جَديبُ

أي: لو كنت تَعدينا الوَصْل. وأنْفُ الشيء: أوّله ومُسْتَأنَفُه. والمُؤْنَفَةُ والمُؤَنَّفَةُ من الإبل: التي يُتَّبَعُ بها أنفُ المَرْعى، أي: أوّله، وفي كتاب علي بن حمزة: أنفُ الرِّعْي. ورجل مِئْناف: يَسْتَأنِفُ المَراعي والمَنازل ويُرَعِّي ماله أُنُفَ الكلإ. والمؤَنَّفَةُ من النساء التي اسْتُؤْنِفَت بالنكاح أوّلاً." وفيه أيضا: "استأنف الشيء اذا ابتدأه."وفيه أيضا: "والاسْتِئنافُ: الابتداء، وكذلك الائْتِنافُ[1].

الاستئناف في الاصطلاح:

تدور معاني الاستئناف في النحو حول معنى الابتداء، وليس المراد هنا أن تقع الكلمة مبتدأ؛ إنما يعني ابتداء جملة جديدة، اسمية كانت أم فعلية، فقد تكون الكلمة خبرا لمبتدإ محذوف، أو مفعولا لفعل محذوف، وهكذا، يقول الدكتور عبادة: "الاستئناف: البدء بكلام جديد، ولا يلزم أن تكون الكلمة مرفوعة، بل يكفي ألا تكون معمولة لشيء في الجملة السابقة، فقد تكون منصوبة بفعل مقدر من جملة جديدة[2].

أولا: الإطار النظري:

نتناول في هذا القسم بعض النقاط النظرية المتعلقة بالقطع، كالقطع بين التركيب والدلالة، واللغويين العرب والنظريات الحديثة، القطع والنظرة المعيارية.

١- القطع بين التركيب والدلالة

إن قطع الكلمة عما قبلها نحويا فتأخذ موقعا إعرابيا جديدا يؤثر في التحليل اللغوي بالنقص من جهة وبالزيادة من جهة أخرى؛ إذ تنقص الوحدات الداخلة في تركيب الجملة الواحدة، في حين يزيد عدد الجمل الداخلة في بناء النص الواحد، فمثلا في قوله تعالى: (سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(نجد فعلا واحدا هو (سيصلى)،

(١) اللسان (أنف)

(٢) معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية ٦٤

وفاعله مستتر تقديره (هو) يعود إلى أبي لهب، ومفعولا هو (نارا)، وصفة لهذا المفعول هي (ذات لهب)، وحرف عطف، ومعطوفا على الفاعل المستتر، ونعتا لهذا المعطوف، إذا لم نعتبر القطع، فيكون معنا جملة واحدة طويلة، فإذا ما اعتبرنا القطع أصبح معنا فعل هو (سيصلى)، وفاعله مستتر تقديره (هو) يعود إلى أبي لهب، ومفعول هو (نارا)، وصفة لهذا المفعول هي (ذات لهب)، وحرف عطف، ومعطوف على الفاعل المستتر، وفعل آخر محذوف، يدور في فلك الفعل الأصلي، وفاعل محذوف، ومفعول به لهذا الفعل المحذوف، والتقدير: أذم حمالة الحطب.

بهذا يكون معنا جملتان لا جملة واحدة، لكن الجملة الأولى قد نقص من مكملاتها جزء صغير، تم استثمار هذا الجزء الصغير لتكوين جملة جديدة، فزاد بذلك عدد الجمل الداخلة في تركيب النص.

على أن القطع لا يعني الفصل التام بين الجملتين، وإن كان هذا الفصل موجودا فهو موجود بصفة تشريحية فقط؛ وذلك لتحليل النص تحليلا نحويا على مستوى الجملة، فإذا ما اتجهنا إلى التحليل النحوي على مستوى النص وجدنا النص مازال متماسكا، فالقطع النحوي هنا لا يؤدي إلى بتر جزء من النص؛ إنما هي طريقة تعبيرية تعطي للرسالة وظيفة إضافية فوق وظيفتها الأصلية، ولعل الرسم الشجري لجملة أصابها القطع يمكن أن يكشف عن هذا التماسك، فجملة مثل:

أتاني زيدٌ الفاسقَ الخبيثَ

يمكن التعبير عنها بالرسم الشجري التالي[1]:

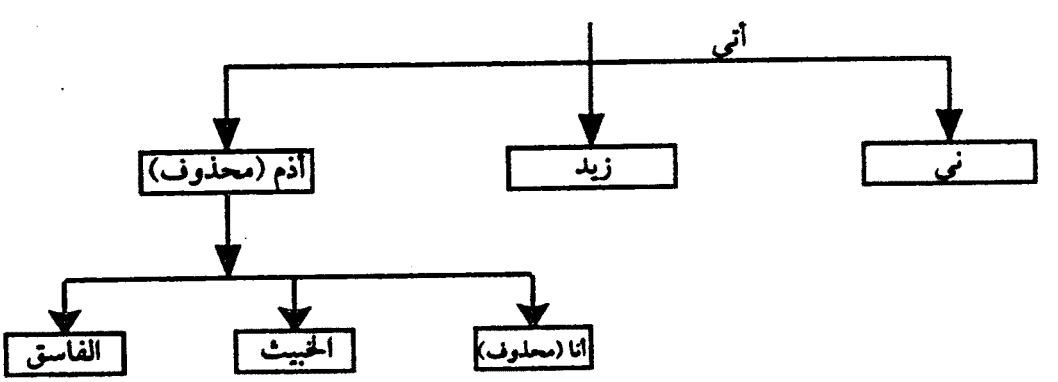

(١) لقد استفدت في هذا الرسم وبيان الارتباط بين الفعل وبقية مكونات الجملة من كتاب الدكتور سعيد بحيري: نظرية التبعية في التحليل النحوى

فالارتباط بين الفعل (أتى) وهو المتحكم في بنية هذه الجملة وزيد موجود فزيد هو المرفوع بهذا الفعل، وهو القائم به على سبيل الحقيقة، والياء هي المفعول لهذا الفعل، فقد وقع عليه الإتيان، والفعل (أذم) مرتبط من جهة بالفعل (أتى) فالذم هنا واقع على القائم بتنفيذ الفعل (أتى)، ومن ثم فالارتباط بين الفعلين قائم، ومن جهة أخرى الفعل (أذم) متحكم في بنية الجملة الثانية، فأنا هو المرفوع به وهو القائم به على سبيل الحقيقة أيضا، و(الخبيث) هو المنصوب به على المفعولية، و(الفاسق) تابع للخبيث بالوصفية، ومن ثم تتأكد نسبة التبعية الكلية للمكونات كلها إلى الفعل الأساسي في هذه الجملة (أتى)، لكن المعنى المستفاد من الجملة بعد قطع النعت هنا يختلف عن المعنى المستفاد من الجملة نفسها مع عدم القطع، فالمعنى مع عدم القطع: أن زيدا الموصوف بالخبث والفسق قد أتاني، ولايتضمن ذلك أنني أذمه أو أمدحه أو أرضى عن فعله أو أنكر اتصافه بهذه الصفات، والمعنى مع قطع النعت هنا أن زيدا الخبيث الفاسق قد أتاني وأنني أذمه ولا أرضى عن وجود هذه الصفات فيه.

إن اختلاف المعنى في الجملتين لا يعني التناقض إنما يعني إضافة معنى جديدا زائدا على المعنى الأساسي في الجملة الأصلية، وبهذا يسمح القطع بحرية الحركة في البنية العميقة deep structureلتفسير الشكل السطحي بطرق متعددة وصور متنوعة، فالكلمات في الشكل (البنية السطحية (surface structureواحدة، لكن البنية العميقة مختلفة لاختلاف المعنيين، ولاختلاف حركات الإعراب، ولاختلاف التقدير في الصورتين.

لا شك أن لكل نص ظروفه التي يتم إبداعه فيها، ومن ثم فإن عملية التحليل لهذا النص لا بد أن تراعي الظروف التي أبدع فيها النص، فالذي لا يمكن إنكاره أن مبدع النص يفكر بطريقة ما في أحوال المتلقي لهذا النص، وكيفية تقبله للنص، ولم تكن البلاغة العربية غافلة عن هذا، ومن ثم وجدنا في علم البلاغة العربية ما أطلق عليه مقامات القول، وأضرب الخبر، وما أسماه علماء البلاغة مراعاة مقتضى الحال، فللمتلقي دور مهم بل بالغ الأهمية في عملية الإبداع، ومن ثم فعلى محلل النص أن يراعي ذلك عند

التحليل، ولقد اهتم علم اللغة الحديث بالمتلقي، فظهرت التفكيكية، ويقصد بها ما يقوم به المتلقي من تفكيك لرموز الرسالة التي تلقاها؛ حيث يقوم بعملية تضاد وتعاكس تمام المضادة وكل المعاكسة عملية الإبدع، فالمبدع يؤلف رسالته من تلك الرموز اللغوية المتمثلة في الفونيمات ثم الكلمات ثم الاستعمال النحوي على مستوى الجملة ثم الاستعمال النحوي على مستوى النص، فتتضمن الرسالة بذلك الدلالة المنشودة، وتصل الرسالة إلى المتلقي بكل محتوياتها بوصفها عملا كاملا، ثم يقوم المتلقي برد هذه الرسالة إلى مكوناتها الأساسية؛ مبتدئا بتفكيك النص إلى جمل نحوية، ثم إلى بنى صرفية، ثم إلى فونيمات وأصوات، وهي عملية معاكسة تماما لعملية الإبداع كما رأينا.

٢- اللغويون العرب والنظريات الحديثة:

وإذا كانت البلاغة العربية قد اهتمت بشكل جزئي بظروف المتلقي، فإن البلاغيين العرب- وهم لغويون- قد راعوا ذلك في تحليلاتهم النصوص بشكل جزئي أيضا، وهذا جهد يشكرون عليه في ضوء إمكانات عصرهم وظروف حياتهم، وأيضا في ضوء إمكانات عصرنا، ومع التقدم العلمي الهائل الذي نشهده؛ إذ مازلنا نتلمس خطاهم ونسير على دربهم، ولا تكاد توجد نظرية واحدة إلا وقد استفادت بطريقة مباشرة من أولئك اللغويين العرب[١]، ناهيك عن أن النظريات اللغوية الحديثة لم تتمكن من تحليل النصوص تحليلا دقيقا فبكل منها أوجه قصور عز على أصحابها أن يتخلصوا منها. فقد أفرطت الأسلوبية في العمل الإحصائي، فأرهقت الباحث والقارئ بالبيانات الإحصائية، والأرقام الحسابية، وشغلت العقل بمسائل رياضية، وتحولت اللغة عندهم إلى إحصاءات وجداول ورموز رياضية، ولم تخرج من وراء ذلك بنتائج ذات بال، أو على الأقل النتائج التي خرجت بها لا تتناسب مع الجهد المبذول[٢].

(١) لقد سبق أن أعد صاحب هذا البحث بحثا عنوانه: (الحذف في كتاب سيبويه في ضوء المناهج اللغوية الحديثة) أثبت فيه تضمن كتاب سيبويه أهم مبادئ التفكير الأسلوبي، وأسس المنهج التحويلي التوليدي، وكذا المنهج الوصفي.

(٢) انظر: سعد مصلوح: في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية، و شفيع السيد: الاتجاه الأسلوبي في النقد ١٨٤.

كما أفرط التحويليون والتركيبيون في الاهتمام بنحو الجملة[1]، ولم يلتفتوا إلى النص بوصفه وحدة متماسكة، ولم يراعوا مقامات القول وموقع المخاطب من النص؛ إذ إن المخاطب شريك في النص عن طريق مراعاته من المبدع في عملية الإبداع، ومن قبل تحولت عملية الوصف عند أتباع سوسير إلى قوالب جامدة تبحث في الشكل ولا تهتم بالمعنى، وصارت اللغة عندهم مبنى لا معنى فيه[2].

لقد استطاع البحث اللغوي عند سيبويه أن يثبت قدرته، وثباته على مر العصور، فصار كتاب سيبويه قرآن النحو، وما زال اللغويون إلى يومنا هذا يجدون فيه ما يكشف لهم الطريق، وقد أفاد منه اللغويون العرب وغير العرب.

إن سيبويه قد بلغ شأنا جعل كل اللغويين الذين جاءوا من بعده يتأثرون به تأثيرا بالغا، فنقلوا كلامه كما هو في كثير من الأمور، ولم يزيدوا عليه غير قليل من الشواهد، يتضح ذلك فيما ذكره المبرد في قضية القطع والاستئناف، وبمعنى آخر في محاولته تحليل بعض النصوص تحليلا دلاليا في ضوء القطع والاستئناف، يقول المبرد: "وكذلك قوله عز وجل: (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ(؛ لأنه لم يجعل سبب تعليمهم قوله لا تكفر كما تقول: لا تأتني فأضربك لأنه يقول: إنك إن أتيتني ضربتك. وقوله: فلا تكفر حكاية عنهم وقوله: فيتعلمون ليس متصلاً به. ولو كان كذلك كان لا تكفر فتتعلم يا فتى ولكن هو محمول على قوله: (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ(فيتعلمون منهم. لا يصح المعنى إلا على هذا أو على القطع، أي: منهم يتعلمون. وأما قول النابغة:

فَلا زَالَ قَبْرٌ بَيْنَ بُصْرَى وَجَاسِمٍ ... عَلَيْهِ مِنَ الوَسْمِيِّ سَحٌّ وَوَابِلُ

فَيُنْبِتُ حَوْذَانًا وَعَوْفًا مُنَوَّرًا ... سَأُتْبِعُهُ مِنْ خَيْرِ مَا قَالَ قَائِلُ

فإن الرفع الوجه لأنه ليس بجواب. إنما هو فذاك ينبت حوذانا. و لو جعله جواباً لقوله: فلازال كان وجهاً جيداً[3].

(١) القواعد التحويلية في ديوان حاتم الطائي هـ

(٢) راجع: بناء الجملة العربية ٢١

(٣) المقتضب ٢/ ٩١، ٠٢

٣- القطع والنظرة المعيارية

اهتم سيبويه بالجانب المعياري، وحق له ذلك، فهو يقعد ويضع أسسا يسير على هدي منها المبدعون الذين لم تكن اللغة عندهم سليقة طبيعية، فمن ثم شغل الجانب المعياري حيزا كبيرا من تفكير سيبويه، وظهر ذلك واضحا في كتابه، فمن ذلك قوله: "وبلغنا أنَّ بعضهم قرأ: (يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ[١])(وتقول: إن تأتني فهو خير لك وأكرمك وإن تأتني فأنا لآتيك وأحسن إليك. وقال عزَّ وجلَّ: (وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ [٢]. والرفع ههنا وجه الكلام وهو الجيِّد لأنَّ الكلام الذي بعد الفاء جرى مجراه في غير الجزاء فجرى الفعل هنا كما كان يجري في غير الجزاء.

وقد بلغنا أنَّ بعض القرَّاء قرأ: (مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [٣] وذلك لأنَّه حمل الفعل على موضع الكلام لأنَّ هذا الكلام في موضع يكون جوابًا لأنّ أصل الجزاء الفعل وفيه تعمل حروف الجزاء ولكنَّهم قد يضعون في مضع الجزاء غيره. ومثل الجزم ههنا النصب في قوله:

فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ ولا الحَدِيدَا

حَمَل الآخر على موضع الكلام، وموضعه موضع نصب كما كان موضع ذاك موضع جزم.

وتقول: إن تأتني فلن أوذيك وأستقبلك بالجميل فالرفع ههنا الوجه إذا لم يكن محمولا على لن كما كان الرفع الوجه في قوله فهو خير لك وأكرمك ومثل ذلك إن أتيتني لم آتك وأحسن إليك. فالرفع الوجه إذا لم تحمله على لم كما كان ذلك في لن[٤].

وهكذا مضت أقوال سيبويه لبيان الوجه في الاستعمال اللغوي، أي: الأصح، مع جواز غيره؛ مراعاة للقياس، واستقراء لكثير من النصوص؛ رغبة في تثبيت القاعدة، وقد

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٨٤

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٧١

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٨٦

(٤) الكتاب ١/ ٤٤٨

ترددت أقوال سيبويه بنصها أحيانا وبمعناها أحيانا أخرى، في كتب النحاة الذين جاءوا بعده، فمن ذلك قول الزمخشري: "سأل سيبويه الخليل عن قوله تعالى: (رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق و أكن من الصالحين(فقال هذا كقول عمرو بن معدي كرب:

دَعْنِي فَأَذْهَبَ جَانِبًا يَوْمًا وَأَكْفِيكَ جَانِبَا

وكقوله:

بَدَا لِي أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى وَلَا سَابِقٍ شَيْئًا إذا كان جَائِيَا

أي كما أجروا الثاني؛ لأن الأول قد تدخله الباء، فكأنها ثابتة فيه، فكذلك جزموا الثاني؛ لأن الأول يكون مجزوما ولا فاء فيه، فكأنه مجزوم(١).

يستمر سيبويه في اتجاهه المعياري تثبيتا للقاعدة كما ذكرنا آنفا، وإقرارا لما يصح من الكلام؛ حيث فُقدت السليقة، وأصبحت اللغة تعلما ودراسة، وأصبح الناس بحاجة إلى من يكشف لهم وجه الصواب، فكان دور سيبويه الأعظم أن يبين هذا الصواب، ويعلم الناس ما يصح وما لا يصح، قال سيبويه: "واعلم أنَّ النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأتني آتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله:

وَأَلْحَقَ بِالحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا

فهذا يجوز وليس بحد الكلام، ولا وجهه، إلاّ أنَّه في الجزاء صار أقوى قليلا؛ لأنّه ليس بواجب أنّه يفعل إلاّ أن يكون من الأول فعلٌ فلمَّا ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه وإن كان معناه كمعنى ما قبله إذا قال وأعطيك. وإنَّما هو في المعنى كقوله:أفعل إن شاء الله، يوجب بالاستثناء، قال الأعشى فيما جاز من النصب:

وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لا يَزَلْ يَرَى مَصْرَعَ مَظْلُومٍ مَجَرًّا وَمَسْحَبَا

وتُدْفَنُ منه الصَّالِحاتُ وإنْ يُسِيءْ يَكُنْ ما أساء النَّارَ في رَأسِ كَبْكَبَا(٢).

---

(١) المفصل ٧٤٣، ٨٤٣

(٢) الكتاب١/ ٨٤٤، ٩٤٤

وفي تأكيده على الجانب المعياري يقول سيبويه: "وإن قلت: والله لآتينك ثم الله لأضربنّك فإن شئت قطعت فنصبت كأنّك قلت: بالله لآتينك والله لأضربنَّك فجعلت هذه الواو بمنزلة الواو التي في قولك: مررت بزيد وعمرو خارج وإذا لم تقطع وجررت فقلت: والله لآتينك ثمّ والله لأضربنك صارت بمنزلة قولك: مررت بزيد ثم بعمرو.

وإذا قلت: والله لآتينك ثم لأضربنك اللهَ فأخّرته لم يكن إلا النصب لأنه ضمّ الفعل إلى الفعل ثمّ جاء بالقسم له على حدته ولم يحمله على الأوّل[1].

وهكذا يفصل سيبويه الحديث في إمكانية استعمال طرق متعددة للتعبير عن المعنى الواحد، مع مراعاة أن كل صورة تعبيرية تحمل في طياتها بعض الاختلافات الدلالية عن الصيغ الأخرى.

كما يلاحظ أيضا أنه يربط بين المتناظرين مع بعد القياس؛إذ إن قياس القسم على الحال أمر بعيد، وفيه نظر.

ويستمر سيبويه في استخدام القياس بطريقة بديعة؛ مؤكدا على الجانب المعياري يقول:"وإذا قلت: والله لآتينك ثمّ الله فإنّما أحد الاسمين مضموم إلى الآخر وإن كان قد أَخَّرَ أحدهما ولا يجوز في هذا إلا الجرّ لأنَّ الآخر معلَّق بالأوّل؛ لأنه ليس بعده محلوف عليه.

ويدلك على أنّه إذا قال: والله لأضربنك ثم لأقتلنك الله؛ فإنه لا ينبغي فيها إلا النصب: أنه لو قال: مررت بزيدٍ أول من أمس وأمس عمرٍو كان قبيحًا خبيثا؛ لأنه فصل بين المجرور والحرف الذي يشركه وهو الواو في الجارّ كما أنَّه لو فصل بين الجّار والمجرور كان قبيحًا فكذلك الحروف التي تدخله في الجارّ لأنه صار كأنَّ بعده حرف جر فكأنك قلت: وبكذا.

ولو قال: وحقِّك وحقٍّ زيد على وجه النِّسيان والغلط جاز. ولو قال: وحقِّك وحقِّك على التوكيد جاز، وكانت الواو واو الجر[2].

---

(١) الكتاب ٢/ ٦٤١

(٢) الكتاب٢/ ٦٤١

لعل سيبويه يقصد - فيما يبدو لي- أنه إذا كان الفصل بين الجار والمجرور قبيحا خبيثا، فإن الفصل بين العاطف على الاسم المجرور، والمعطوف المجرور يكون قبيحا أيضا؛ لأن حرف العطف في هذه الحالة يقوم مقام حرف الجر، وإن لم يكن ثَمَّ حرف جر.

وفي قول سيبويه: "وتقول: ما زيد كريمًا ولا عاقلا أبوه تجعله كأنه للأول بمنزلة كريم لأنه ملتبس به إذا قلت أبوه تجريه عليه كما أجريت عليه الكريم لأنك لو قلت: ما زيد عاقلا أبوه نصبت وكان كلامًا.

وتقول: ما زيد ذاهبًا ولا عاقل عمرو لأنك لو قلت ما زيد عاقلا عمرو لم يكن كلامًا لأنه ليس من سببه فترفعه على الابتداء والقطع من الأول كأنك قلت: وما عاقل عمرو. ولو جعلته من سببه لكان فيه له إضمار كالهاء في الأب ونحوها ولم يجز أن تنصبه على ما لأنك لو ذكرت ما ثم قدمت الخبر لم يكن إلا رفعًا. وإن شئت قلت: ما زيد ذهبًا ولا كريم أخوه إن ابتدأته ولم تجعله على ما كما فعلت ذلك حين بدأت بالاسم[1].

نعرف أنه في بعض صور العطف ينبغي أن يحدث القطع؛ إذ إن السياق لايقبل أن يحمل الثاني على الأول، ففي فلسفة العطف، كما يقررها سيبويه، لابد أن يصح إحلال المعطوف محل المعطوف عليه، ويستقيم المعنى، أو يصبح الكلام تاما، ولذلك جاز ما زيد كريما ولا عاقلا أبوه؛ لأنه يصح أن نقول: ما زيد عاقلا أبوه، وللسبب نفسه لم يجز ما زيد ذاهبا ولا عاقلا عمرو؛ لأنه لا يصح أن نقول ما زيد عاقلا عمرو.

إن للمبدع أن يختار ما يشاء من الإمكانات اللغوية المتاحة ليعبر بها عما يجيش في صدره، غير أنه ليس من حقه أن يخرج على نظام اللغة ومعاييرها، وفي ضوء هذا المفهوم جاء تعريف الأسلوب بأنه انتقاء أو اختيار يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة [2]،فالمبدع يختار من القائمة التي تجيزها اللغة، فهي قائمة احتمالات تركيبية مقبولة لغويا، وليس له أن يخرج على اللغة في نظامها وتراكيبها، ومن ثم بين سيبويه للتكلم ما يصح له أن يستخدمه وما لا يصح على نحو ما رأينا.

---

(١) الكتاب١/ ٢٠

(٢) في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية٢٣

وانظر إليه وهو يقول: "ومثل هذا: (وحورٌ عينًا)[1] في قراءة أبي بن كعب.

فإن قلت: قد لقيت زيداً وأما عمرو فقد مررت به ولقيت زيداً فإذا عبد الله يضربه عمرو. فالرفع إلا في قول من قال: زيداً رأيته، وزيداً مررت به؛ لأن أما وإذا يقطع بهما الكلام، وهما من حروف الابتداء، يصرفان الكلام إلى الابتداء إلا أن يدخل عليهما ما ينصب، ولا يحمل بواحد منهما آخر على أول، كما يحمل بثم والفاء. ألا ترى أنهم قرءوا: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ)[2] وقبله نصب وذلك لأنها تصرف الكلام إلى الابتداء إلا أن يقع بعدها فعل نحو أما زيداً فضربت.

وإن قلت: إن زيداً فيها، أو إن فيها زيداً، وعمرو أدخلته، أو دخلت به، رفعته إلا في قول من قال: زيداً أدخلته، وزيداً دخلت به؛ لأن إنَّ ليس بفعل وإنما هو مشبه به. ألا ترى أنه لا يضمر فيه فاعل ولا يؤخر فيه الاسم وإنما هو بمنزلة الفعل كما أن عشرين درهمًا وثلاثين رجلا بمنزلة ضاربين عبد الله وليس بفعل ولا فاعل."[3]

وسيبويه لا يفتأ يعقد مقارنات بين الأدوات، ويبين الفروق بين كل أداة وشبيهتها، فبين هنا الفرق بين إذا الفجائية و أمَّا من جهة والفاء وثُمَّ من جهة أخرى، فذكر أن الكلام يقطع بعد إذا وأما ويأتي بعدهما المبتدأ، ولا يعطف بهما ما بعدهما على ما قبلهما، وهذا بخلاف الفاء وثم؛ حيث يحمل بهما آخر على أول. ولا يفوت سيبويه أن يبين الحالة التي لا تصرف فيها الكلام إلى الابتداء وهي إذا جاء بعدها فعل، نحو: أما زيدا فضربت.

وكذا قوله: "وعلى هذا: ما رأيت أحداً إلا زيداً فتنصب زيداً على غير رأيت وذلك أنك لم تجعل الآخر بدلا من الأول ولكنك جعلته منقطعًا مما عمل في الأول.

والدليل على ذلك أنه يجيء على معنى: ولكن زيداً ولا أعني زيداً. وعمل فيه ما قبله كما عمل العشرون في الدرهم إذا قلت عشرون درهمًا.

---

(١) سورة الواقعة، من الآية ٢٢

(٢) سورة فصلت، من الآية: ١٧

(٣) الكتاب١/ ٤٩

کتابخانہ
بنیاد دایرۃ المعارف اسلامی

ومثله في الانقطاع من أولـه: إن لفُلان والله مالا إلا أنه شـقيّ فأنه لا يكون أبداً على إن لفلان وهو في موضع نصبٍ وجاء على معنى: ولكنه شقي[1].

لا شك أن القطع يؤدي إلى تقسيم الجملة الطويلة إلى جملتين، حيث يكَوِّن المقطوع عما قـبله جملة مع المحـذوف المقدر قـبله، وبهـذا تختلف البنيـة العـميـقة التي ينتـمي إليهـا التركـيب السطحي، فـبعد أن كـانت الجملة مـكونة من فعل + فـاعل+معطوف (مـثلا) أصبحت مكونة من فـعل+ فاعل، وتلتها جملة أخـرى مكونة من مبتدإ+ خبـر (مثلا) أو فعل+ فـاعل(محذوفين مـقدرين) + مفـعول به (ظاهر). كمـا رأينا هذا التغـير الشكلي الذي نتج عن عـملية نطقـية وتوظيـف جديد لحـركات إعـرابية نتج عنه تغـير في البنـية العـميـقـة، واسـتـتـبع هذا بالضـرورة تغـيرا في الـدلالة، تلك التي تمثل الهـدف من بناء التركيب اللغوي بصورة ما من الصور، إذ الهدف من الرسالة أن تبلغ المتلقي أمرا، وتؤثر فيه تأثيرا معينا على نحو مما يقرر الأسلوبيون.

وقد يكون الشكل واحدا لكن العلـة التي من أجلها وجدت علامة الإعراب مـختلفة، وهذا يعني أن البنية العميقة مختلفة؛ إذ قد تتعدد البنى العميقة لتفسر شكلا سطحيا واحدا[2].

يقول سيبويه: "فإذا قالوا مَن عـمرٌ؟ ومن أخو زيد؟ رفعوا أخًـا زيد؛ لأنه قد انقطع من الأول بمن الثاني الذي مع الأخ، فصـار كأنك قلت: مَن أخو زيد؟ كمـا أنك تقول تبًا له وويلا وتبًا له وويلٌ له.

وسألت يـونس عن: رأيت زيدَ بنَ عمـرو فقال: أقـول مَن زيدَ ابن عمـرو لأنه بمنزلة اسم واحد[3].

أدى القطع إلى زيادة عدد الجمل الداخلة في تشكيل النص، وأسـهم في اختلاف الصور اللغوية المستخدمـة في التعبير عن المعنى الواحد، وأحدث تغيرا جذريا في البنـية العميقة على نحو ما رأينا.

---

(١) الكتاب١/ ٣٦٣

(٢) راجـع فـي ذلـك:An introduction to transformational syntax page13،
وانظر أيضا: الحذف في كتاب سيبويه،ص٢٣

(٣) الكتاب١/ ٤٠٤

استمرارا في التأكيد على المنهج المعياري الذي استخدمه سيبويه في مواضع كثيرة من كتابه، يبين سيبويه متى يقع القطع في البدل كما يقع في أخويه العطف والنعت، يقول سيبويه: "ومثل ذلك قوله عزّ وجل ذكره: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ) (١). وإن شئت قلت: مررتُ برجلٍ عبدُ الله كأنه قيل لك: مَن هو أو ظننت ذلك.

ومن البدل أيضًا: مررتُ بقوم عبدِ الله وزيد وخالد والرفعُ جيد. وقال الشاعر وهو بعض الهُذليين وهو صَخْرُ الغَيِّ:

يا مَيّ إن تَفقدي قومًا وَلَدتهم ... أو تُخلَسيهم فإن الدهر خلاسُ

عَمْرٌو وعَبْدُ مَنَافٍ والَّذي عَهِدَتْ ... بِبَطنِ عَرْعَرَ آبي الضَّيْمِ عَبَّاسُ

والرفع جائز قوي لأنه لم ينقض معنًى كما فعل ذلك في النكرة.

وأما المعرفة التي تكون بدلا من المعرفة فهو كقولك: مررتُ بعبد الله زيد إما غلطتَ فتداركتَ وإما بدا لك أن تُضرِب عن مرورك بالأول وتجعله للآخر.

وأما الذي يجيء مبتدأ فقول الشاعر وهو مُهلهلٌ:

ولقد خبَطنَ بيوتَ يَشكُرَ خَبطةً ... أخوالُنا وهُمُ بنو الأعمامِ

كأنه حين قال: خبطنَ بيوت يشكرَ قيل له: وما هم فقال: أخوالُنا وهم بنو الأعمام.

وقد يكون مررتُ بعبد الله أخوك كأنه قيل له: مَن هو أو مَن عبدُ الله فقال: أخوك.

وقال الفرزدق:

ورثتُ أبي أخلاقَه عاجِلَ القِرى ... وعَبْطَ المَهارِي كُومُها وشَبوبُها(٢)

كأنه قيل له: أيُّ المهاري فقال: كومُها وشَبوبُها.

وتقول: مررتُ برجلٍ الأسد شدةً كأنك قلت: مررتُ برجلٍ كامل لأنك أردت أن ترفع شأنَه. وإن شئت استأنفتَ كأنه قيل له: ما هو.

ولا يكون صفةً كقولك: مررتُ برجلٍ أسد شدةً لأن المعرفة لا توصَف بها النكرة ولا يجوز أن توصَف بنكرة أيضًا لما ذكرتُ لك. والابتداء في التبعيض أقوى. وهذا عربي

---

(١) سورة الشورى، من الآيتين ٥٢، ٥٣

(٢) الكتاب ١/ ٢٢٥

جيد: قوله: أخوالنا، وقد جاء في النكرة في صفتها، فهو في ذا أقوى، وقال الراجز:

وساقيَيْن مثلِ زيدٍ وجُعَل سَقْيانِ مَمشوقان مكنوزا العَضَل[1]

إن الوقوف أمام عبارات سيبويه وهو يحاول أن يحلل النص الشعري من خلال تصوره للسياق اللغوي الذي وقع فيه النص linguistic Context ومحاولة تأمل ذلك الموقف وهذا التحليل يعطينا صورة واضحة عن ارتباط هذا اللغوي الجليل بمعطيات السياق Context ومدى اهتمامه بسياق الحال، وهذا يعني أن سيبويه لم يكن يهتم بالمنحى المعياري فحسب؛ إنما كان يرعى جانب التحليل اللغوي بصورة دقيقة وواعية، ولننظر إليه وهو يقول: "كأنه حين قال: خبطن بيوت يشكر قيل له: وما هم؟ فقال: أخوالنا وهم بنو الأعمام". وفي هذا دلالة واضحة على أن باكورة النحو التحويلي منشؤها في كتاب سيبويه.

فقال:

أليس هذا تحليلا للبنية التحتية، أو العميقة Deep structure لجزء من النص السابق؟ وفي قول الشاعر:

ورثت أبي أخلاقه عاجل القرى وعبط المهاري كومها وشبوبها

يقول: "كأنه قيل: أيُّ المهاري؟ فقال: كومها وشبوبها"

فوق ما يحمل هذا النص - وغيره كثير- من دلالة واضحة على وجود بواكير البنية العميقة والبنية السطحية، أو النحو التحويلي التوليدي، فإن سيبويه يتميز في هذا المقام بمحاولة مسرحة النص اللغوي وإجراء حوار في عقل القارئ والسامع، وفي ذهن المحلل اللغوي إبان عملية التحليل فيحدث من خلال هذا الحوار الاتساق التام بين القاعدة والنص اللغوي، ويكشف عن العطاءات الدلالية التي يمكن أن يحتملها النص، الأمر الذي يضع سيبويه على قمة الباحثين اللغويين قديما وحديثا.

لأن القطع من الموضوعات النحوية ذات الأهمية الكبرى في مجال التحليل النحوي، فقد عني به سيبويه عناية كبيرة في تحليله نصوصا مختلفة، وقد أدت الإفادة من التعامل

---

(١) الكتاب١/ ٢٢٥، ٢٢٦

مع النص اللغوي في ضوء القطع والاستئناف إلى نتائج ذات بال إذا ما قيست بما تقدمه مناهج لغوية حديثة أمثال التحويلية التوليدية، ونظرية التبعية في التحليل النحوي، والأسلوبية، وغير ذلك، وقد وضح من خلال الدرس النحوي لموضوع القطع والاستئناف موقعية البحث اللغوي عند سيبويه، وأستاذه الخليل، حيث ثبت إدراكهما لوظيفة الرسالة، تماما كما أدركها اللغويون الأسلوبيون في العصر الحديث، فالهدف الأساسي من الرسالة هو إبلاغ المخاطب أمرا يجهله، والتأثير فيه بصورة ما، لكن الرسالة قد تخرج عن هذا الهدف إلى أهداف أخرى، فمن ذلك ما أثبته سيبويه نقلا عن أستاذه الخليل بقوله: "زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدّث الناس ولا مَن تخاطب بأمرٍ جهلوه ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمتَ فجعله ثناء وتعظيمًا ونصبه على الفعل كأنه قال: أذكرُ أهلَ ذاك، وأذكر المقيمين، ولكنه فعلٌ لا يستعمل إظهارُه. وهذا شبيهٌ بقوله: إنا بني فلانٍ نفعل كذا؛ لأنه لا يريد أن يخبر مَن لا يدري أنه من بني فلان ولكنه ذكر ذلك افتخارًا وابتهاءً."(١)

فلم تكن نظرة اللغويين العرب قاصرة على تقرير الصواب وإبطال الخطإ، مع أهمية ذلك، وتقديرهم اهذه الأهمية، فتقرير الصواب وإبطال الخطإ مسألة مهمة لتعليم الناشئة، وغير العرب، ولضبط اللسان وصونه من الخطإ، ومن ثم فقد شغلت هذه المسألة حيزا كبيرا من اهتمامهم؛ الأمر الذى حدا ببعض الباحثين إلى اتهامهم (٢) دون الاستفادة من الإمكانات المتعددة في ثنايا التحليل اللغوي، وهذا اتهام له ما يؤيده لكن لا يمكن تعميمه؛ فلا يمكن أن نصف الجهود اللغوية لدى العرب بالمعيارية وحدها، فالمعيارية كانت تمثل جانبا واحدا من جوانب البحث اللغوي عند هؤلاء اللغويين، ومن ثم فإن المدقق في كتاب سيبويه والناظر فيه بعمق يمكنه أن يلحظ نظرات تحليلية رائعة،

---

(١) الكتاب١/ ٢٥٠

(٢) انظر مثلا: اللغة بين المعيارية والوصفية، ومناهج البحث في اللغة. ويمكن مراجعة كثير من الرسائل العلمية التي أعدت في النحو وعلم اللغة في العالم العربي حتى أوائل الثمانينيات، وستكون النتيجة هي إثبات أوجه قصور في البحث اللغوي عند العرب القدماء، والاتجاه بكل قوة نحو ما هو غربي، مع تبرئة المناهج الغربية من كل عيب.

ولعل هذا يرجع إلى أن الهدف من الدراسات العربية الأولى لم يكن هدفا تعليميا صرفا، إنما كان الهدف محاولة فهم القرآن الكريم وتحليل آيه الشريفة كما يرجح الدكتور عبده الراجحي فقد نشأت الدراسات اللغوية العربية لمحاولة فهم القرآن لا للحفاظ على اللغة(١).

لعل محاولة فهم القرآن كانت الهدف الأكبر من أهداف اللغويين العرب، فقد كانت مسألة حفظ اللغة والخوف عليها من الضياع أيضا تشغل بالهم أيما شغل، ومن ثم فقد امتزج لدى اللغويين العرب المبدأ المعياري الصارم، والرؤى التحليلية الواعية.

ثانيا: الجوانب التحليلية

يتناول البحث في هذا القسم الجوانب التحليلية المتصلة بالقطع كقطع المعرفة، وقطع النكرة، وأثر القطع على الحركة الإعرابية للأفعال، وعلاقة ذلك بالدلالة الزمنية، والقطع والتتابع الزمني للأفعال، والدلالة في أم المنقطعة. وهي قضايا على درجة كبيرة من الأهمية؛ إذ تكشف بوضوح عن جهد سيبويه وأستاذه الخليل في مجال التحليل اللغوي، وتبين مدى الارتباط بالنص اللغوي، وإعمال العقل للوصول إلى المعنى المتوقع أن المبدع كان يرمي إلى توصيله للمتلقي، كما تكشف عن إدراك سيبويه وظيفة الرسالة وكيف تتغير الوظيفة بتغير المقام.

١- قطع المعرفة:

من أهم الأهداف التي يقطع لها اللفظ عما قبله المدح والتعظيم، وهذا القطع يكون غالبا في المعرفة؛ لأنك لا تمدح منكورا، ولا تعظم مجهولا، إنما تمدح معروفا، وتعظم مشهورا، وقد عقد سيبويه في كتابه بابا لما ينتصب على المدح والتعظيم، وكأنه يرى أن اللفظ إذا قطع للمدح أو التعظيم، فإنما يكون منصوبا على فعل محذوف تقديره: أمدح، قال سيبويه: "هذا باب ما ينتصب على التعظيم والمدح، وإن شئت جعلته صفةً، فجرى

(١) انظر: النحوي العربي والدرس الحديث١١

على الأول، وإن شئت قطعتَه، فابتدأتَه. وذلك قولك: الحمدُ لله الحميدَ هو، والحمد لله أهلَ الحمد والمُلك لله أهلَ المُلك. ولو ابتدأته فرفعتَه كان حسنًا كما قال الأخطل:

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذَ يومٌ باسلٌ ذكرُ
الخائضُ الغمرَ والميمونُ طائره خليفةُ الله يُستسقى به المطرُ

وأما الصفة، فإن كثيراً من العرب يجعلونه صفةً، فيُتبعونه الأولَ، فيقولون: أهلِ الحمد والحميد هو. وكذلك الحمد لله أهله. إن شئت جررت، وإن شئت نصبت، وإن شئت ابتدأت[1] كما قال مُهلهل:

ولقد خبطن بيوتَ يشكُرَ خبطةً أخوالنا وهمُ بنو الأعمامِ

وسمعنا بعض العرب يقول: (الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ)[2] فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية.

ومثل ذلك قول الله عز وجلّ: (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)[3]. فلو كان كله رفعًا كان جيداً. فأما المؤتون فمحمول على الابتداء. وقال جلّ ثناؤه: (وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ)[4]. ولو رفع الصابرين على أول الكلام كان جيداً. ولو ابتدأتَه فرفعته على الابتداء كان جيداً كما ابتدأتَ في قوله: (وَالمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ).

ونظير هذا النصب من الشعر قول الخرْنق:

لا يبعَدَنْ قومي الذي همُ سمُّ العُداة وآفةُ الجُزْرِ

---

(١) يقرر سيبويه هنا جواز أوجه متعددة في الكلمة التي يمكن قطعها عما قبلها نحويا؛ حيث يجوز جعلها تابعا من غير قطع، ويجوز قطعها بالرفع؛ لتكون خبرا لمبتدإ محذوف، ويجوز نصبها على فعل محذوف.

(٢) سورة الفاتحة، الآية:٢؛ ويونس، من الآية ١٠، وغافر من الآية ٦٥

(٣) سورة النساء، من الآية:١٦٢

(٤) سورة البقرة، من الآية:١٧٧

النازلين بكل مُعترَكٍ والطيبون معاقدَ الأزر

فرفعُ الطيبين كرفع المؤتين. ومثل هذا في الابتداء قول ابن خَيَّاط العُكْلِيّ:

وكل قوم أطاعوا أمرَ مُرشدهم إلا نُمَيرًا أطاعت أمرَ غاويها

الظاعنين ولما يُظعنوا أحدًا والقائلون لمنْ دارٌ نُخلّيها

وزعم يونس أن من العرب من يقول: النازلون بكل معترك والطيبين، فهذا مثل (والصابرين).

ومن العرب من يقول: الظاعنون والقائلين فنصبُه كنصب الطيبين، إلا أن هذا شتمٌ لهم وذمٌّ، كما أن الطيبين مدحٌ لهم وتعظيم. وإن شئت أجريتَ هذا كلّه على الاسم الأول، وإن شئت ابتدأتَه جميعًا، فكان مرفوعًا على الابتداء. كل هذا جائز في ذين البيتين وما أشبههما، كلٌّ ذلك واسع.

وزعم عيسى أنه سمع ذا الرمة يُنشد هذا البيت نصبًا:

لقد حملتْ قيسُ بن عَيلانَ حربَها على مستقلّ للنوائب والحربِ

أخاها إذا كانت عضاضًا سما لها على كل حالٍ من ذَلول ومن صعبِ

زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدّث الناس، ولا مَن تخاطب بأمرٍ جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمتَ، فجعله ثناء وتعظيمًا، ونصبه على الفعل، كأنه قال: أذكرُ أهلَ ذاك، وأذكر المقيمين، ولكنه فعلٌ لا يستعمل إظهارُه. وهذا شبيهٌ بقوله: إنا بني فلانٍ نفعل كذا لأنه لا يريد أن يخبر مَن لا يدري أنه من بني فلان ولكنه ذكر ذلك افتخارًا وابتهاءً. إلا أن هذا يجري على حرف النداء. وستراه إن شاء الله عزّ وجلّ في بابه في باب النداء مبينًا. وتُرك إظهار الفعل فيه حيث ضارع هذا وأشباهه؛ لأن إنّا بني فلان ونحوه بمنزلة النداء. وقد ضارعه هذا الباب[1].

لا يمكن أن يكون هذا الحشد من الشواهد المتنوعة بين القرآن والشعر لمجرد إعلام الدارس جواز وجه لغوي وبيان صحة هذا الوجه مع جواز غيره، وأظن أن سيبويه عمد إلى حشد كل هذه الشواهد ليؤكد لنا وظيفة الرسالة اللغوية، فاللغة وسيلة للتواصل بين

(١) الكتاب١/ ٢٤٨: ٢٥٠

الناطقين بهـا، ومن ثم فكل نص فيهـا يحمل رسـالة ما يريد المبدع أن ينقلهـا إلى المتلقي فيخبره أمرا ويحدث به أثرا ما، ولعل هذا ما جـعل سيبويه يلح على بيان وظيفة الرسالة، فمن ذلك قـوله: "وهذا شبيـه بقوله إنا بني فـلان نفعل كذا؛ لأنه لا يريد أن يخـبر مَن لا يدري أنه من بني فـلان ولكنه ذكر ذلك افتـخاراً وابتـهاءً"، فقـد يكون الفخر والـتعظيم للذات أو للغـير (المدح) هو الدافع وراء القطع، ومن ثم فـالهدف من مثـل هذه الرسائل ليس نقل الخبر، إنما ما يفهم من تداعيات السـياق، وطريقة الأداء وعلى حد تعبير الخليل لم ترد أن تحدّث الناس ولا مَن تخـاطب بأمرٍ جهلـوه ولكنهم قد علموا من ذلك مـا قد علمتَ فجعله ثناء وتعظيمًا.

ويرى الأخفش أن الرفع في (الموفـون(على الاستدراك وحذف المضاف وإقـامة المضاف إليه مقامه(١).

لا أريد أن أبالغ في وصف جـهد سـيبـويه واللغويين العـرب، فجـهدهم فـوق الوصف ولكنه عمل بشري، وقـد نشأت الدراسات اللغوية مرتبطة بالقـرآن الكريم، وفي محاولة لضبط اللسان، ومن ثم فلا غـرو أن تهتم أول ما تهتم بتثبيت المـعيار لهذا العلم، والعلوم اللغوية العربـية عند سيبويه كـانت مهتمة بهـذا التثبيت أيما اهتمـام، ومن ثم وجدنا عند سيبويه عبـارات مثل: كان جيدا، وزعم أنها عربية، وغـير ذلك من العبارات التي ترسخ القيمة المعيارية للدراسات اللغوية العربـية. غير أن هذا لا يعني أن سيبويه وأساتذته كانوا بمعزل عن تحليل النصوص؛ فقـد فهموا الهدف من النص اللغوي فهمـا دقيقا يكاد يرقى إلى أن يوصف بالسبق للمدارس اللغوية الحديثة في هـذا المضمار، فقد رأوا أنه أحيانا لا يكون الهدف من الرسـالة هو الإبلاغ، إنما يكون هناك هدف آخر، قـد يكون هذا الهدف الآخر هو إعطاء دلالة جـديدة تختلف عن الدلالة المسـتفادة من مـجرد وجود التـركيب الأساسي بالجـملة، ومن ثم تختلف طريقـة تركيب الجملة من نص لآخـر، وربما يحدث هذا في البنية العـميقـة وحدها وتظل البنية السطـحية كمـا هي، يؤكد ذلك ما ذكـره آنفا سيـبويه عن الخليل من أن نصب مـثل هذه الصور يكون من أجل أنـك لم ترد أن تحدث الناس بأمر جـهلوه، ولكنهم قد عـلموا من ذلك ما قـد علمت، فجـعلته ثناء وتعظيـما،

(١) معاني القرآن ١/ ٣٤٨، ٣٤٩

وهذا يعني أن الهدف من الرسالة يتحكم في طريقة صياغتها، ويؤثر في تشكيل بنيتها الأساسية، فهو المحرك الأساسي لوضع التركيب اللغوي بصورة ما من الصور المتاحة في اللغة، وقد يؤثر هذا في البنية السطحية، وأحيانا لا يؤثر فيها اكتفاء بالتأثير في البنية العميقة.

٢- قطع النكرة:

ربما خشي سيبويه أن يظن الدارسون أن القطع والاستئناف لا يكونان إلا مع المعرفة، حيث يكون القطع للمدح والتعظيم، وهذا غالبا يقتضي المعرفة، وإن كان للذم والشتم فهو أيضا يحتاج إلى المعرفة ليكون أكثر مبالغة في الذم والشتم؛ لذا فقد ذكر أنهما يأتيان مع النكرة أيضا، فقال: "ومن هذا الباب في النكرة قول أميةَ بن أبي عائذ:

ويأوي إلى نِسوةٍ عُطّلٍ وشُعثًا مراضيعَ مثل السّعالي

كأنه حيث قال: إلى نسوة عُطّل صِرنَ عنده ممن عُلم أنهن شُعث[1] ولكنه ذكر ذلك تشنيعًا لهن وتشويهًا. قال الخليل: كأنه قال: وأذكرهنّ شُعثًا إلا أن هذا فعلٌ لا يُستعمل إظهارُه. وإن شئت جررت على الصفة.

وزعم يونس أنك تقول: مررت بزيد أخيك وصاحبك كقول الراجز:

بأعيُنٍ منهـا مليحاتِ النُّقَبْ شكلِ النِّجارِ وحلالِ المكتسَبْ

كذلك سمعناه من العرب. وكذلك قال مالك بن خويلد الخُناعي:

يا ميَّ لا يُعجزُ الأيامَ ذو حِيَدٍ في حَومةِ الموت رزّامٌ وفرّاسُ
يحمي الصريمةَ أحدانُ الرجال له صَيْدٌ ومجترئٌ بالليل همّاسُ

وإن شئت حملته على الابتداء كما قال:

فَتى الناس لا يخفى عليهم مكانُه وضِرغامةٌ إن همّ بالحرب أوقعا

وقال آخر:

إذا لقي الأعداءَ كانَ خلاتَهم وكلبٌ على الأدنين والجارِ نابحُ

---

(١) اقتربت النكرة من المعرفة هنا عن طريق الوصف؛ فليست نكرة محضة؛ إنما مخصصة بالوصف.

(١) الكتاب ١/ ٢٥٠، ٢٥١

كذلك سمعناهما من الشاعرين اللذين قالاهما[٢].

وأول هذه الشواهد ينتمي إلى الترحم، والثاني ينتمي إلى المدح، أما الشاهد الأخير فإنه ينتمي إلى الذم والشتم ولا ينتمي إلى المدح ولا إلى الترحم.

لقد ارتبط سيبويه بالسياق ارتباطا وثيقا في تحليله بعض النصوص اللغوية، فبين أن القطع للتعظيم لا يجوز على كل حال، كما أن كل صفة ليست صالحة لأن تقطع للتعظيم، فاللفظة في سياق تعطي دلالة قد لا تكون في سياق آخر يقول: "واعلم أنه ليس كل موضع يجوز فيه التعظيم ولا كل صفة يحسن أن يعظَّم بها. لو قلت: مررت بعبد الله أخيك صاحبَ الثياب أو البزّاز لم يكن هذا مما يعظَّم به الرجل عند الناس ولا يفخَّم به. وأما الموضع الذي لا يجوز فيه التعظيم فأن تذكر رجلا ليس بنبيه عند الناس ولا معروف بالتعظيم ثم تعظّمه كما تعظّم النبيه. وذلك قولك: مررت بعبد الله الصالح. فإن قلت: مررت بقومك الكرام الصالحين ثم قلت المُطعمين في المَحل جاز لأنه إذا وصفهم صاروا بمنزلة من قد عُرف منهم ذلك وجاز له أن يجعلهم كأنهم قد عُلموا. فاستحسن ما استحسنت العربُ وأجِزْه كما أجازته[١].

يتأكد لدينا من خلال النص السابق المراعاة التامة من اللغويين العرب ومن سيبويه لمقامات القول، فليست كل صفة قابلة لأن تنقطع عما قبلها للدلالة على التعظيم، ولا للدلالة على المدح، إنما يرتبط ذلك بالسياق العام للاستعمال اللغوي، وظروف إنشاء النص، وليس أدل على ذلك من عبارة سيبويه فاستحسن من هذا ما استحسن العرب، وأجزه كما أجازته، وهي تعني أن نلتزم بالقياس اللغوي على ما ورد عن العرب، فالقطع يكون في ظروف مقالية معينة وله قرائن تتحكم فيه، مما يمنع اللبس، ويؤدي إلى وضوح المعنى المراد نقله من خلال الرسالة اللغوية، وإذا لم نراع ذلك فقدت الرسالة وظيفتها.

إن القضية إذن ليست تقريرا لصواب، وبيانا لوجه الخطإ؛ إنما هي قضية كيان لغوي حي له طبيعته وظروفه التي تؤثر فيه، فليست لدينا قواعد جامدة يمكن أن نطبقها في كل وقت، وعلى كل نص، وتحت أي ظرف؛ إنما هناك دائما وقفات لاستنطاق النص،

(١) الكتاب ١/ ٢٥١، ٢٥٢

والاستفادة من معطيات السياق، يقول سيبويه: "وليس كل شيء من الكلام يكون تعظيمًا لله عزّ وجلّ يكون تعظيمًا لغيره من المخلوقين: لو قلت: الحمدُ لزيد تريد العظمةَ لم يجز وكان عظيمًا. وقد يجوز أن تقول: مررت بقومك الكرام إذا جعلت المخاطَب كأنه قد عرفهم كما قال مررت برجلٍ زيدٌ، فتُنزله منزلةَ من قال لك: من هو؟ وإن لم يتكلم به. فكذلك هذا تُنزله هذه المنزلة، وإن كان لم يعرفهم[1].

يكشف سيبويه عن أهمية معرفة الموصوف ومعرفة الصفات التي يتحلى بها فما يكون تعظيما لله عز وجل لا يصلح أن يكون تعظيما للبشر، وهذه نظرة رائدة في دراسة النص فليست مستويات الخطاب متساوية، إنما لكل نوع من المخاطبين مستوى معين ينبغي أن يعرفه المتكلم، ويبدع رسالته اللغوية في ضوء من هذه المعرفة.

إن الهدف من الرسالة اللغوية يتحكم في طريقة صياغة البنى الصرفية ورصفها لتخرج الرسالة محققة هذا الهدف الذي من أجله أبدعت. وقد كان سيبويه واعيا تماما بهذه القضية، فقد وعى وظيفة الرسالة وأثر هذه الوظيفة في التركيب اللغوي، فذكر أن المبدع أحيانا لا يريد أن ينقل إليك خبرا، ولا أن يعرفك مجهولا؛ إنما يرمي إلى شيء آخر، يقول سيبويه: "باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم و ما أشبهه وذلك قولك: أتاني زيدٌ الفاسقَ الخبيث: لم يرد أن يكرره ولا يعرّفك شيئًا تُنكره؛ ولكنه شتمه بذلك، وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبًا: (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ)[2] لم يجعل الحمالة خبرًا للمرأة

ولكنه كأنه قال: أذكرُ حمّالةَ الحطب شتمًا لها وإن كان فعلا لا يُستعمل إظهاره.

وقال عروة الصعاليك:

سقَوْني الخمرَ ثم تكنّفوني عُداةَ اللهِ من كذب وزورِ

إنما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطَبين. وقال النابغة:

لَعمري وما عَمري عليّ بهيّنٍ لقد نطقتْ بُطلا عليّ الأقارعُ

---

(١) الكتاب١/ ٢٥٢

(٢) سورة المسد، الآية:٤، وهذه هي القراءة المشهورة، برواية حفص عن عاصم.

أقارعُ عَوفٍ لا أحاول غيرَها وجوهَ قرودٍ تبتغي من تُجادع

وزعم يونس أنك إن شئت رفعتَ البيتين جميعًا على الابتداء تُضمر في نفسك شيئًا لو أظهرته لم يكن ما بعده إلا رفعًا. ومثل ذلك:

متى ترَ عيني مالكٍ وجِرانَه وجَنبَيْه تعلمْ أنه غيرُ ثائرِ
حِضَجْرٌ كأمّ التوأمَين توكّأتْ على مِرفقيها مستهلةَ عاشرِ

وزعموا أن أبا عمرو كان ينشد هذا البيت نصبًا وهذا الشعرُ لرجل معروف من أزْدِ السّراة:

قُبّح من يزني بعمْ و فمن ذوات الخُمُرْ
الآكلَ الأسْلاء لا يُحفِلُ ضوء القمَرْ

وإن شاء جعله صفة فجره على الاسم. وزعم يونس أنه سمع الفرزدق يُنشد:

كم عمةٍ لك يا جريرُ وخالةٍ فَدْعاءَ قد حلبتْ عليّ عِشاري
شغّارةً تَقِذُ الفصيلَ برِجْلها فطّارةً لقوادمِ الأبكار

جعله شتمًا وكأنه حين ذكر الحلب صار من يخاطَب عنده عالمًا بذلك. ولو ابتدأه وأجراه على الأول كان ذلك جائزًا عربيًا. وقال:

طليقُ الله لم يَمنُنْ عليه أبو داودَ وابنُ أبي كثيرِ
ولا الحجاجُ عينيْ بنتِ ماءٍ تقلّبُ طَرفها حَذَرَ الصّقور

فهذا بمنزلة وجوه قرود. وأما قول حسان بن ثابت:

حارِ بنَ كعب ألا أحلامَ تزجُركم عني وأنتم من الجُوف الجماخيرِ
لا بأس بالقوم من طُولٍ ومن عِظمٍ جسمُ البِغال وأحلامُ العصافير

فلم يردْ أن يجعله شتمًا؛ ولكنه أراد أن يعدّد صفاتهم ويفسّرها فكأنه قال: أما أجسامهم فكذا، وأما أحلامهم فكذا.

وقال الخليل رحمه الله: لو جعله شتمًا، فنصبه على الفعل كان جائزًا[1].

فالقطع كما كان للمدح والتعظيم في سياقات لغوية تحتمل الدلالة على المدح والتعظيم،

(١) الكتاب١/ ٢٥٢، ٢٥٤

فإنه يأتي أيضا للذم والشتم في سياقات لغوية أخرى تحتمل الدلالة على الذم والشتم ففي قول الشاعر:

سقوني الخمرَ ثم تكنّفوني عُداةَ الله من كذب وزورِ

نجد أن قطع (عداة الله) ونصبه إنما جاء شتما لهم، أو تأكيدا لذمهم، وبيان صفاتهم القبيحة، فهم عداة الله، يؤكد ذلك سيبويه بقوله: "إنما شتمهم بشيء قداستقر عند المخاطبين". وفي قول الآخر:

لَعمري وما عَمري عليّ بهيّنٍ لقد نطقتْ بُطلا عليّ الأقارعُ

أقارعُ عَوفٍ لا أحاول غيرَها وجوهَ قرودٍ تبتغي من تُجادع

نجد الشاعر هنا قد شتمهم بأقذع الشتائم، فقد استخدم لفظ قرود مضافا إلى وجوه، وليس أبشع من أن تصف أحدا بأنه يشبه القرد، ثم قطع اللفظ تأكيدا لهذا الذم، وكأنه لم يكتف بوصفهم بأنهم يشبهون القرود، فزاد على ذلك أنها وجوه قرود مذمومة، فأضاف إلى القبح قبحا وإلى السوء سوءا.

على أنه قد تتعدد الصفات في الجملة الواحدة ولا يحدث لأي منها قطع، وذلك كما فعل حسان في هجائه للحارث بن كعب؛ إذ اكتفى حسان بما تحمله الصفات المذكورة من شتم وذم؛ ومن ثم لم يقطع، ولو قطع، لكان ذلك جائزا، كما ذكر الخليل رحمه الله.

لقد انتقلت الرؤى الدلالية من عند سيبويه وأستاذه الخليل إلى من جاء بعدهما، فلخصوها أو أثبتوها، من ذلك قول الزمخشري: "ومنه قولهم: الحمدُ لله الحميدَ، والملكُ لله أهلَ الملك، وأتاني زيدٌ الفاسقَ الخبيثَ، وقُرئ: (حَمَّالَةَ الحَطَبِ)، ومررت به المسكين، والبائس، وقد جاء نكرة في قول الهذلي:

ويَأوِي إِلَى نِسْوَةٍ عُطَّلٍ وَشُعْثًا مَرَاضِيعَ مِثْلَ السَّعَالِي

وهذا الذي يقال فيه نصب على المَدْحِ والشَّتْمِ والتَّرَحُّم"[1].

وإذا كان الزمخشري لم يشر هنا إلى سبق سيبويه له في الحديث عن فكرة النصب على المدح أو الشتم أو الترحم؛ إيمانا منه بأن هذه القواعد عامة فليست ملكا لأحد، فسيبويه

(١) المفصل٥٥، ٥٦

نفسه قد نقلها عن أساتذته؛ فإنه في موضع آخر يذكر قول سيبويه، وينقل رؤيته التحليلية للنص وينسبها إليه، على نحو مما سنرى في حديثه عن القطع والتتابع الزمني للأفعال من هذا البحث.

يستمر سيبويه في تحليل هذه النصوص بهذه الطريقة البديعة، فهو يفرق بين هدف المبدع في حالتين، ويكشف عن تأثير الهدف على المبدع، فهو في هذه النصوص لا يريد مدحا ولا ذما إنما يريد مجرد تعديد صفات المُتحدَّث عنهم، ولو أراد الشتم، أو التخصيص على أعني، فنصب، لما كانت هناك مشكلة، لكن إرادته تعديد الصفات فقط جعلته يأتي بهذه الصفات متصلة غير مقطوعة عن الموصوف قبلها.

على أن المبدع قد يخرج على المألوف في تركيب الجملة لا لشيء من المدح والذم، ولا الافتخار، إنما لمجرد استعمال طريقة تعبيرية متاحة في اللغة، يقول سيبويه: "وقد يجوز أن ينصب ما كان صفة على معنى الفعل ولا يريد مدحًا ولا ذمًا ولا شيئًا مما ذكرت لك. وقال:

وما غرّني حوزُ الرِّزاميّ محصَنًا عواشيها بالجوّ وهو خصيبُ

ومحصن: اسم الرزامي فنصبه على أعني وهو فعل يظهر لأنه لم يرد أكثر من أن يعرّفه بعينه ولم يرد افتخارًا ولا مدحًا ولا ذمًا. وكذلك سُمع هذا البيت من أفواه العرب وزعموا أن اسمه مِحصَن"(١).

قد نوافق سيبويه فيما ذهب إليه من أنه أحيانا يستخدم المبدع غير المألوف في بناء الجملة لمجرد استخدام طريقة تعبيرية متاحة لغويا، ولكننا إذا تصورنا طريقة الأداء اللغوي لهذه الرسالة، وتخيلنا منظر المرسل وكأنه يهز رأسه، وهو ينطق الرِّزاميّ محصنا، ويحدث سكتة خفيفة بعد ياء الرزامي، وينطق لفظ محصنا، فيمد فتحة النون، وما قد يصاحب ذلك من إحساس بالتهكم، استطعنا أن نربط بين الحركة الإعرابية وطريقة الأداء اللغوي

(١) الكتاب١/ ٢٥٤، ٢٥٥

من جهة، والمعنى المراد نقله وتوصيله من جهة أخرى.

٣- الحركة الإعرابية للفعل والدلالة على الزمن

حاول سيبويه أن يربط بين كون الفعل مرفوعا أو منصوبا ودلالة هذا الفعل على الزمن، يقول سيبويه: "ومن ذلك أيضًا قولك: إن تأتني إذن آتك لأنّ الفعل ههنا معتمد على ما قبل إذن. وليس هذا كقول ابن عنمة الضّبّيّ:

ارْدُدْ حمارك لا تُنْزَعْ سَوِيَّتُه إذن يردُّ وقَيْدُ العير مَكْرُوبُ

من قبل أنّ هذا منقطع من الكلام الأوّل وليس معتمدًا على ما قبله لأنّ ما قبله مستغن.

ومن ذلك أيضًا: والله إذن لا أفعل من قبل أنّ أفعل معتمد على اليمين وإذن لغو. وليس الكلام ههنا بمنزلته إذا كانت إذن في أوّله؛ لأنّ اليمين ههنا الغالبة. ألا ترى أنّك تقول إذا كانت إذن مبتدأة: إذن والله لا أفعل؛لأن الكلام على إذن، ووالله لا يعمل شيئا، ولو قلت: والله إذن أفعل تريد أن تخبر أنّك فاعل لم يجز كما لم يجز والله أذهب إذن إذا أخبرت أنك فاعل. فقبح هذا يدلّك على أنّ الكلام معتمد على اليمين. وقال كثيّرة عزّة:

لئن عاد لي عبد العزيز بمثلها وأمكنني منها إذن لا أقيلها

وتقول: إن تأتني آتك وإذن أُكْرِمْك إذا جعلت الكلام على أوّله ولم تقطعه وعطفته على الأوّل. وإن جعلته مستقبلا نصبت وإن شئت رفعته على قول من ألغى. وهذا قول يونس وهو حسن لأنّك إذا قطعته من الأوّل فهو بمنزلة قولك: فإذن أفعل إذا كنت مجيبًا رجلا.

وتقول: إذن عبد الله يقول ذاك لا يكون إلاّ هذا من قبل أنّ إذن الآن بمنزلة إنّما وهل كأنك قلت: إنّما عبد الله يقول ذاك. ولو جعلت إذن ههنا بمنزلة كي وأن لم يحسن من قبل أنّه لا يجوز لك أن تقول: كي زيد يقول ذاك، ولا: أن زيد يقول ذاك. فلمّا قبح ذلك جُعِلَت بمنزلة هل وكأنّما وأشباههما.

وزعم عيسى بن عمر أنّ ناسًا من العرب يقولون: إذن أفعلُ ذاك في الجواب. فأخبرت

يونس بذلك فقال: لا تُبعِدَنّ ذا. ولم يكن ليروي إلاّ ما سمع، جعلوها بمنزلة هل وبل.

وتقول إذا حُدِّثت بالحديث: إذن أظنُّه فاعلا، وإذن إخالك كاذبًا، وذلك لأنك تخبر أنّك تلك الساعة في حال ظنّ وخِيلة، فخرجت من باب أن وكي؛ لأنّ الفعل بعدهما غير واقع، وليس في حال حديثك فِعْلٌ ثابت. ولما لم يجز ذا في أخواتها التي تُشَبَّهُ بها، جُعِلت بمنزلة إنما.

ولو قلت: إذن أظُنَّك، تريد أن تخبره أنّ ظنّك سيقع، لنصبت. وكذلك إذن يضربُك إذا أخبرت أنّه في حال ضرب لم ينقطع(١).

وهذا بحث طريف أجراه سيبويه، بين فيه أن التعبير الزمني يرتبط برباط وثيق مع حركة الإعراب، وكأنهما في قَرَن، فإن أراد المتكلم الحال جاء بالفعل رفعا، وإن أراد الاستقبال جاء به نصبا، وإن أراد الاستمرار من الحال إلى الاستقبال جاء بالفعل رفعا، يؤكد ذلك ما ذكره سيبويه من أنك إذا حدثت بالحديث فقلت: إذن أظنُّه فاعلا، وإذن إخالُك كاذبا؛ وذلك لأنك تخبر أنك في تل الساعة في حال ظن وخيلة. ولنلاحظ قوله في تلك الساعة مع مجيء الفعلين (أظنه وإخالك) مرفوعين. ولننظر أيضا إلى قوله: "ولو قلت: إذن أظنَّك تريد أن تخبره أنّ ظنّك سيقع لنصبت" وهكذا أكد سيبويه أن مجيء الفعل رفعا دال على وقوعه في الحال، كما أن مجيئه نصبا دال على وقوعه فيما يستقبل، فأما إذا أراد الاستمرار، فالفعل مرفوع؛ حيث قال: " وكذلك إذن يضربُك إذا أخبرت أنّه في حال ضرب لم ينقطع".

٤- القطع والتتابع الزمني للأفعال

هل يؤثر القطع على التتابع الزمني للأفعال؟ يجيب سيبويه عن هذا السؤال في ثنايا تحليله لبعض النصوص على، يقول سيبويه: "ومثل ذلك قول حسان:

يغشون حتّى لا تَهِرُّ كلابهم لا يسألون عن السّواد المقبل

ومثل ذلك: مرض حتّى يمرُّ به الطائر فيرحَمُه، وسرت حتّى يعلَمُ الله أنّي كالّ. والفعل ههنا منقطع من الأوّل وهو في الوجه الأوّل الذي ارتفع فيه متّصل كاتّصاله به

(١) الكتاب١/ ٤١١، ٤١٤.

بالفاء، كأنه قال سير فدخول، كما قال علقمة ابن عبدة:

تُرَادى على دِمَن الحِياض فإن تَعَفْ فإنّ المُنَدّى رِحْلَةٌ فَرُكُوبُ

لم يجعل ركوبه الآن ورحلته فيما مضى، ولم يجعل الدخول الآن وسيره فيما مضى؛ ولكنّ الآخر متّصل بالأوّل ولم يقع واحد دون الآخر(١).

وانظر إلى قوله: "وذلك قوله: إنّه عندنا فيحدّثنا، وسوف آتيه فأحدّثه ليس إلا، إن شئت رفعته على أن تشرك بينه وبين الأوّل، وإن شئت كان منقطعًا؛ لأنّك قد أوجبت أن تفعل، فلا يكون فيه إلاّ الرفع. وقال عزّ وجلّ: (فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ)(٢) فارتفعت؛ لأنه لم يخبر عن الملكين أنهما قالا: لا تكفر فيتعلّمون؛ ليجعلا كفره سببًا لتعليم غيره؛ ولكنه على كفروا فيتعلّمون. ومثله:(كُن فَيَكُونُ)(٣) كأنّه قال: إنما أمرنا ذاك فيكون(٤).

نعم الفعل هنا منقطع عن الأول، ولا يمكن أن يكون مترتبا عليه لاسببيا ولا زمنيا؛ إذ المعنى في قول حسان أنهم قوم كرام مضايف، تأتيهم ضيوف كثيرون، فمن كثرة مجيء الضيوف إليهم تعودت الكلاب ذلك فهي لا تنبح ولا تهر. ولو كان الثاني مترتبا على الأول لكان المعنى أن الضيوف تأتيهم حتى يحدث تعود للكلاب، ثم ينقطع مجيء الضيوف؛ إذ كان مجيؤهم لهدف وقد تحقق، وليس هذا المعنى من مراد الشاعر؛ لأنه لا يكون مدحا.

وفي قولهم: مرض حتى يمر به الطائر فيرحمه، لو كان الثاني (يمر) مترتبا على الأول (مرض) لكان الهدف من المرض أن يمر به الطائر؛ فإذا ما مر تحقق الهدف من المرض فزال، وعلى غير الترتيب، أي: على القطع يكون المعنى أنه مرض واشتد مرضه، فرقت له الكائنات من شدة ما يلاقيه ويعانيه، حتى رق له الطائر.

وأوضح من هذين قوله: سرت حتى يعلم الله أني كالٌّ، لو كان هناك ترتيب بين الفعلين

---

(١) الكتاب١/ ٣١٤، ٤١٤

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٠٢

(٣) جزء من الآية:١١٧ من سورة البقرة،٤٧ ،٥٩ من سورة آل عمران، ٧٣من سورة الأنعام،٤٠ من سورة النحل،٣٥ من سورة مريم، ٨٢من سورة يس،٦٨ من سورة غافر

(٤) الكتاب١/ ٤٢٣

(سرت)، و(يعلم) لكان المعنى أن الهدف من السير أن يعلم الله، وهذا محال، لأن الله يعلم سرت أم لم أسر، وعلى القطع يكون المعنى أنني سرت، وليس هذا فحسب؛ بل تعبت والله يعلم أني تعبت؛ فكأنه أقسم على صدقه. مع ملاحظة أن الفعلين يقعان في زمن واحد، فليس أحدهما حادثا في زمان غير زمان الآخر؛ بل هما جميعا في آن واحد. وكذا قوله تعالى: (كن فيكون(حيث يكون الحدوث في اللحظة التي يتم فيها الأمر، ولا فاصل زمنيا بين الفعلين، فقدرة الله فوق الزمان.

ولنقف وقفة قصيرة عند قول سيبويه: "وقد يجوز النصب في الواجب في اضطرار الشعر ونصبه في الاضطرار من حيث انتصب في غير الواجب وذلك لأنّك تجعل أن العاملة. فممّا نصب في الشعر اضطراراً قوله:

سَأترُكُ مَنْزِلي لِبَني تَميمٍ وَألحَقُ بالحِجازِ فأستريحا

وقال الأعشى وأنشدناه يونس:

ثُمَّتَ لا تَجْزُونَني عِنْدَ ذاكم ولكِنْ سَيَجْزِيني الإله فَيُعْقِبَا

وهو ضعيف في الكلام، وقال طرفة:

لنا هضبة لا يدخل الذّلّ وسطها ويأوي إليها المستجير فَيُعْصَمَا

وكان أبو عمرو يقول: لا تأتنا فَنَشْتُمُكَ.

وسمعت يونس يقول: ما أتيتني فأحدّثك فيما أستقبل فقلت له: ما تريد به فقال: أريد أن أقول ما أتيتني فأنا أحدّثك وأكرمك فيما أستقبل. وقال: هذا مثل ائتني فأحدّثك إذا أراد ائتني فأنا صاحب هذا[1].

بالتأمل في هذه الشواهد التي خرجها سيبويه على أنها نوع من الاضطرار نجد أن الفعل الثاني جاء تابعا في السبب والزمان للفعل الأول، مع وجود فاصل زمني بينهما؛ ففي قول الشاعر:

سأترك منزلي لبني تميم وألحق بالحجاز فأستريحا

اللحاق مسبب عن الترك وناتج عنه، وتال له في الحدوث، والاستراحة كذلك عن

(١) الكتاب١/ ٤٢٣، ٤٢٤

اللحاق، فمن ثم جاء الفعلان (ألحق) و(أستريح) منصوبين وهما مقطوعان من الفعل الأول (سأترك)؛ الأمر الذي يعني أن القطع يؤثر في عملية التتابع الزمني للأفعال. وفي قول طرفة:

لنا هضبة لا يدخل الذّلّ وسطها ويأوي إليها المستجير فيعصما

نجد الفعل (فيعصم) مسببا عن الأوي، وتال له في الحدوث، فهو مقطوع عن تبعية الفعل (يأوي)؛ ولذا جاء منصوبا.

وانظر إلى قوله: "اعلم أنّ الواو ينتصب ما بعدها في غير الواجب من حيث انتصب ما بعد الفاء وأنها قد تشرك بين الأوّل والآخر كما تشرك الفاء وأنّها يستقبح فيها أن تشرك بين الأوّل والآخر كما استقبح ذلك في الفاء وأنّها يجئ ما بعدها مرتفعًا منقطعًا من الأوّل كما جاء ما بعد الفاء.

واعلم أنّ الواو وإن جرت هذا المجرى، فإنّ معناها ومعنى الفاء مختلفان. ألا ترى الأخطل قال:

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فلو دخلت الفاء ههنا لأفسدت المعنى، وإنّما أراد لا يجتمعنّ النهي والإتيان، فصار تأتي على إضمار أن.

ومما يدلّك أيضًا على أنّ الفاء ليست كالواو قولك: مررت بزيد وعمرو، ومررت بزيد فعمرو، وتريد أن تُعلِم بالفاء أن الآخر مُرّ به بعد الأول. وتقول: لا تأكل السّمك وتشرب اللبن، فلو أدخلت الفاء ههنا، فسد المعنى. وإن شئت جزمت على النهي في غير هذا الموضع. قال جرير:

ولا تَشْتُمِ المولى وتَبْلُغْ أذاتَه فإنك إن تفعل تُسَفَّه وتَجْهَلِ

ومنعك أن تَجْزِم في الأوّل؛ لأنّه إنما أراد أن يقول له: لا تجمع بين اللبن والسمك، ولا ينهاه أن يأكل السمك على حدة، ويشرب اللبن على حدة، فإذا جزم فكأنّه نهاه أن

---

(١) الكتاب١/ ٤٢٤، ٤٣٥

يأكل السمك على كلّ حال، أو يشرب اللبن على كلّ حال[1].

إن النهي في الشاهدين السابقين لا ينصب على الفعلين كلية؛ إنما ينصب على مسألة الجمع بينهما؛ ولذا فالمنهي عن الجمع بينهما له أن يقوم بأحد الفعلين؛ لأن الجمع بين الفعلين في الشاهد الأول يمثل تناقضا شديدا بين القول والفعل، فهو ينهى عن شيء، ثم يقوم بمثله، لذا فقد نهي عن القيام بهما معا في آن. وفي الشاهد الثاني يمثل الجمع بين الفعلين مغالاة شديدة، فيكتفى بأحد الفعلين (الشتم) أو (الإيذاء)؛ حيث القيام بأحدهما يحقق الهدف المنشود، وهو إيلام المولى، وهكذا يبين سيبويه الصور اللغوية المتاحة، ويربط ذلك بالسياق العام للنص، فالنهي لا يصلح في سياق: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، لكنه يصلح في موضع آخر، كما قال: "وإن شئت جزمت على النهي في غير هذا الموضع"وفي هذا دليل على ارتباط سيبويه بالإطار العام للنص وتداعياته، فالتركيب اللغوي عنده يجوز استعماله في سياق، ولا يجوز استعماله في سياق آخر.

وفي قول سيبويه: "ومثل النصب في هذا الباب قول الحطيئة:

ألم أك جاركُمْ وتكونَ بيني ... وبينكمُ المودّةُ والإخاءُ

كأنّه قال: ألم أك هكذا، وتكون بيني وبينكم. وقال دريد بن الصّمّة:

قتلتُ بعبد الله خيرَ لِداته ... ذؤابًا فلم أفخرْ بذاك وأجزَعا

وتقول: لا يسعني شئ ويعجز عنك فانتصاب الفعل هاهنا من الوجه الذي انتصب به في الفاء إلاّ أنّ الواو لا يكون موضعها في الكلام موضع الفاء.

وتقول: ائتني وآتيك إذا أردت ليكن إتيان منك وأن آتيك، تعني إتيان منك وإتيان منّي. وإن أردت الأمر أدخلت اللام، كما فعلت ذلك في الفاء حيث قلت: ائتني فلأحدّثك فتقول ائتني ولآتك.

ومن النصب في هذا الباب قوله عزّ وجلّ: (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِين)[1] وقد قرأها بعضهم: (ويعلم الصّابرين).

وقال تعالى: (وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)[2] إن شئت

---

(١) سورة آل عمران، من الآية:١٤٢

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٢.

(٣) الكتاب ١/ ٤٢٥، ٤٢٦.

جعلت وتكتموا على النهي وإن شئت جعلته على الواو[٣].

نجد أن الشاعر يثبت أن المودة والإخاء وقعتا نتيجة للجوار، وتبعا له، وبعد وجوده، وفي الثاني نرى دريدا وقد قتل أخذا بالثأر- ولم يفخر بذلك القتل وأخذ الثأر في زعمه، بينما هو في الحقيقة قد فخر- وقد يتسرب إلى الذهن أنه لم يفخر جزعا وخوفا من قبيلة القتيل، فذكر أنه لم يجزع فكأن عدم الجزع قد ذكر نتيجة لأثر عدم الفخر.

وفي الآيتين الكريمتين لا نكاد نجد اختلافا كبيرا بين ما قرره سيبويه إزاءهما وما ذكره الأخفش في معانيه بشأنهما، الأمر الذي يؤكد أثر سيبويه فيمن جاء بعده من النحويين واللغويين[١].

إن نصب الفعل في بعض صور الطلب يعني أن الفعل الثاني وقع في مقابلة الطلب في الفعل الأول، فهو نتيجة له، ويكون رفعه دليلا على وجوب الثاني وجد الأول أم لا، ويكون طلب وجود الأول طلبا ابتدائيا، لا على سبيل المعاوضة ولا المكافأة، يقول سيبويه: "وقال تعالى: (يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[٢].

فالرفع على وجهين:

فأحدهما أن يشرك الآخر الأوّل. والآخر على قولك: دعني ولا أعود أي فإنّي ممن لا يعود فإنّما يسأل الترك وقد أوجب على نفسه أن لا عودة له ألبتّة، ترك أو لم يترك، ولم يرد أن يسأل أن يجتمع له الترك وأن لا يعود. وأمّا عبد الله بن أبي إسحاق فكان ينصب هذه الآية.

وتقول: زرني وأزورك أي أنا ممن قد أوجب زيارتك على نفسه ولم ترد أن تقول لتجتمع منك الزيارة، وأن أزورك، تعني لتجتمع منك الزيارة فزيارة منّي، ولكنّه أراد أن يقول زيارتك واجبة على كلّ حال، فلتكن منك زيارة. وقال الأعشى:

فقلت ادعي وأدعوَ إنّ أندى لصوت أن ينادي داعيان[٣].

---

(١) راجع معاني القرآن للأخفش ١/ ٢٢٨، ٢٢٩

(٢) سورة الأنعام، من الآية:٢٧

(٣) الكتاب١/ ٤٢٦

بين سيبويه ما يمكن من الأوجه اللغوية في التركيب الواحد، فالفعل التابع يمكن أن يظل تابعا، ويمكن أن ينقطع عما قبله، وانقطاعه عما قبله يكون لمعنى يقصد إليه قصدا، فحروف العطف تفيد الإشراك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم؛ لكنها قد تنقطع لإحداث دلالة معينة، زمنية كانت أم غير زمنية، وفي هذا المعنى يقول سيبويه: "ويجوز الرفع في جميع هذه الحروف التي تشرك على هذا المثال. وقال عزّ وجلّ: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ)[1] ثم قال سبحانه: (ولا يأمُرُكُمْ) فجاءت منقطعة من الأوّل؛ لأنّه أراد: ولا يأمركم الله. وقد نصبها بعضهم على قوله: وما كان لبشر أن يأمركم أن تتخذوا.

وتقول: أريد أن تأتيني فتشتمُني. لم يرد الشّتيمة ولكنّه قال: كلّما أردت إتيانك شتمتني. هذا معنى كلامه فمن ثمّ انقطع من أن. قال رؤبة:

يريد أن يعربَهُ فيُعْجِمُهْ

أي: فإذا هو يعجمه. وقال الله عزّ وجلّ: (لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ)[2] أي: ونحن نقرّ في الأرحام، لأنّه ذكر الحديث للبيان، ولم يذكره للإقرار. وقال عزّ وجلّ: (أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى)[3] فانتصب؛ لأنّه أمر بالإشهاد لأن تذكّر إحداهما الأخرى، ومن أجل أن تذكّر[4].

إن الرفع في الأفعال الواقعة بعد حروف الإشراك، تلك التي تشرك بين السابق واللاحق يدل على الحال أو الاستمرار، أما النصب فإنه يدل على الاستقبال.

يقول سيبويه: "وسألت الخليل عن قول الشاعر (لبعض الحجازيين):

فما هو إلاّ أن أراها فجاءة فأبهت حتّى ما أكاد أجيب

فقال: أنت في أبهت بالخيار، إن شئت حملتها على أن، وإن شئت لم تحملها عليه فرفعت، كأنّك قلت: ما هو إلاّ الرأي فأبهت. وقال ابن أحمر فيما جاء منقطعًا من أن:

---

(١) سورة آل عمران، من الآية٧٩.

(٢) سورة الحج، من الآية٥

(٣) سورة البقرة، من الآية٢٨٢

(٤) الكتاب١/ ٤٣٠

يعالج عاقراً أعْيَتْ عليه ليُلقِحها فَيَنْتِجُهَا حُوارا

كأنه قال: يعالج، فإذا هو يَنْتِجُهَا. وإن شئت على الابتداء.

وتقول: لا يعدو أن يأتيك فيصنعَ ما تريد، وإن شئت رفعت، كأنّك قلت: لا يعدو ذلك فيصنع ما تريد.

وتقول: ما عدا أن رآني فيثبُ، كأنّه قال: ما عدا ذلك فيثبُ؛ لأنه ليس على أوّل الكلام. فإن أردت أن تحمل الكلام على أن؛ فإنّ أحسنه ووجهه أن تقول: ما عدا أن رآني فوثب، فضعف يثب ههنا كضعف ما أتيتني فتحدّثني إذا حملت الكلام على ما[1].

لعل كلام سيبويه هنا م الوضوح بدرجة لا يحتاج معها إلى تعليق ولعل العلاقة الآن بين القطع والتتابع الزمني للأفعال باتت واضحة، فإذا كان الكلام متصلا حق للأزمنة أن تتتابع، فيكون الفعل الثاني تاليا للفعل الأول في الوجود، ومترتبا عليه، وتابعا له في الإعراب، فإذا انقطع الكلام، وقطع الفعل عما قبله انعدم هذا التتابع، ولم يلزم أن يكون الثاني تاليا للأول، ولا تابعا له، ومن ثم جاز ما عدا أن رآني فيثب، على الرفع؛ لأن الفعل يثب ليس مبنيا على الفعل رآني إنما هو مبني على مبتدإ محذوف، والتقدير: فهو يثب، فأصبح الفعل هنا عادة من صاحبه تتكرر، وليس نتيجة للأول، ولا تابعا له، فإن أراده نتيجة للأول وتاليا له، فلسوف يأتي به ماضيا، فيقول: ما عدا أن رآني فوثب.

٥- انقطاع أم:

تأتي أم في أسلوب الاستفهام لتجعل السؤال محددا باختيارين أو أكثر، ويطلب من المسئول أن يحدد أحد الاختيارات المعروضة، لكن قد تنقطع أم لتعطي دلالة مغايرة لأصل استعمالها، وفي ذلك يقول سيبويه: "وذلك قولك: أعمروٌ عندك أم عندك زيدٌ فهذا ليس بمنزلة: أيهّما عندك. ألا ترى أنك لو قلت: أيهما عندك عندك، لم يستقم إلا على التكرير والتوكيد، ويدلّك على أن هذا الآخر منقطعٌ من الأوّل قول الرجل: إنّها لإبلٌ أم شاءٌ يا قوم. فكما جاءت أم ههنا بعد الخبر منقطعةً كذلك تجيء بعد الاستفهام وذلك أنه حين قال: أعمروٌ عندك؟ فقد ظنَّ أنَّه عنده، ثم أدركه مثل ذلك الظنّ في زيد، بعد أن استغنى

(١) الكتاب١/ ٤٣٠، ٤٣١

كلامه، وكذلك: إنها لإبلٌ أم شاءٌ، إنّما أدركه الشكّ حيث مضى كلامه على اليقين.

وبمنزلة أم ههنا قوله عزّ وجلّ: (الـم * تَنزِيلُ الكِتَـابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)(١) فجاء هذا الكلام على كلام العرب ليعرّفوا ضلالتهم.

ومثل ذلك: (أ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مصْرَ وَهَذِه الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْـرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَـهِينٌ)(٢) كأنّ فرعون قال: أفلا تبصرون أم أنتم بصراء؟ فقوله: أم أنا خيرٌ من هذا بمنزلة: أم أنتم بصراء؛ لأنّهم لو قالوا: أنت خيرٌ منه، كان بمنزلة قولهم: نحن بصراء. وكذلك: أم أنا خيرٌ بمنزلته لو قال: أم أنتم بصراء.

ومثل ذلك قوله تعالى: (أَمِ اتَّخَذَ مِـمَّا يَخْلُقُ بَنَات وَأَصْـفَاكُم بِالبَنِينَ)(٣). فقـد علم النبيﷺ والمسلمون: أنّ الله عزّ وجلّ لم يتخّذ ولداً؛ ولكنه جاءعلى حرف الاستفهام؛ ليبصّروا ضلالتهم. ألا ترى أنّ الرجل يقول للرجل: آلسعادة أحبّ إليك أم الشقاء؟ وقد علم أنّ السعادة أحب إليه من الشقاء، وأن المسئول يقول: السعادة، ولكنه أراد أن يبصر صاحبه، وأن يعلمه.

ومن ذلك أيضًا: أعندك زيدٌ أم لا كأنه حيث قال: أعندك زيدٌ كان يظنّ أنه عنده ثم أدركه مثل ذلك الظنّ في أنه ليس عنده فقال: أم لا.

وزعم الخليل أنّ قول الأخطل:

كـذبتك عَـيْنُك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرّباب خيالا

كقولك: إنّها لإبلٌ أم شاءٌ. ومثل ذلك لكُثيِّر عزّة:

أليس أبي بِالنَّضر أم ليس والدي لكلّ نجيبٍ من خزاعة أزهرا

ويجوز في الشعر أن يريد بكذبتك الاستفهام، ويحذف الألف. قال التميمي، وهو الأسود بن يعفر:

لعمرك ما أدري وإن كنت داريًا شُعَيْثُ بنُ سَهْمٍ أم شُعَيْثُ بنُ مِنْقَرِ

وقال عمر بن أبي ربيعة:

---

(١) سورة السجدة، الآيات ١: ٣

(٢) سورة الزخرف، الآيتان ٥١، ٥٢

(٣) سورة الزخرف، الآية ١٦

(٤) الكتاب١/ ٤٨٤، ٤٨٥

لعمـــرك مـا أدري وإن كنت داريًـا بسـبعٍ رمـين الجـمـر أم بثـمـان[٤]

لقد أدى انقطاع أم عما قبلها إلى أن تغير المعنى تغيرا تاما، فبدلا من كونه استفهاما يراد به تحديد أحد الاختيارين، أصبح إضرابا عن المتبوع، عن الأول، وإثباتا للثاني، وهذا يعني أن المبدع(مرسل الرسالة) لا يستفهم عن شيء جهله، إنما يريد إبلاغ المخاطب بأمرين ثم يؤكد نفي الأول ويثبت وجود الثاني، فكأنه بهذا قد أبلغ المخاطب رسالتين معا في آن الأولى تتضمن النفي، والثانية تتضمن التوكيد لشيء مختلف عما تضمنته الأولى.

على أن الأمر لا يقف عند مسألة الإضراب عن أحد المتعاطفين، وإثبات الآخر؛ بل قد يكون نفيا لهما جميعا، وفي ذلك يقول سيبويه: "وإذا أرادوا أنّك لست واحداً منهما قالوا: لست عمرا ولا بشرا أو قالوا: أو بشرا كما قال عزَّ وجل: (وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَـفُـوراً)[١]. ولو قلت: أو لا تطع كفورا انقلب المعنى. فينبغي لهذا أن يجيء في الاستفهام بأم منقطعًا من الأوّل لأن أو هذه نظيرتها في الاستفهام أم وذلك قولك: أمَا أنت بعمرو أمْ مَا أنت ببشر كأنّه قال: لا بل ما أنت ببشر. وذلك: أنّه أدركه الظنّ في أنه بشرٌ بعدما مضى كلامه الأول فاستفهم عنه[٢].

وهكذا تثبت لسيبويه نظراته التحليلية الواعية، فهو لا يكتفي ببيان ما يجوز وما لا يجوز؛ إنما حاول أن يفسر النص في ضوء تصوره لعملية الإبداع، فالمبدع هنا لا يستفهم عن كون المخاطب أحد المتساويين بأم؛ إنما ينفي أن يكون المخاطب أحدهما؛ إذ قال له: أما أنت بعمرو، على سبيل الاستنكار، ثم ظن أن تشابها بينه وبين بشر، فأراد أن ينفيه أيضا فقال له: أم ما أنت ببشر.

---

(١) سورة الإنسان، من الآية ٢٤

(٢) الكتاب١/ ١٩٤

الخاتمـــــة

بعد رحلتنا مع القطع والاستئناف في كتاب سيبويه نستطيع أن نقرر ما يلي:

أوضح سيبويه نقلا عن أستاذه الخليل أن الهدف من الرسالة قد يخرج عن كونه نقلا للخبر، إلى شيء جديد، قد يكون مدحا أو شتما أو ترحما، أو غير ذلك من الأغراض؛ الأمر الذي يؤكد سبقهما للأسلوبيين في هذا المجال؛ حيث قرر الأسلوبيون أن الهدف من الرسالة هو نقل الخبر مع التأثير على المتلقي.

حاول سيبويه أن يكشف عن الدلالة المستفادة من التركيب اللغوي في حالة القطع والاستئناف، وكذا هذه الدلالة في حالة الوصل.

أوضح البحث العلاقة بين القطع والاستئناف والتتابع الزمني للأفعال المنتظمة في فلك التركيب اللغوي، فذكر أن الكلام إذا كان متصلا حق للأزمنة أن تتتابع، فيكون الفعل الثاني تاليا للفعل الأول في الوجود، ومترتبا عليه، وتابعا له في الإعراب، فإذا انقطع الكلام، وقطع الفعل عما قبله انعدم هذا التتابع، ولم يلزم أن يكون الثاني تاليا للأول، ولا تابعا له.

ولعله الآن قد تأكد لنا أن سيبويه واللغويين العرب كان لهم فضل السبق في إرساء منهج لغوي يقوم على أساس التعامل المباشر مع النص م مراعاة الجوانب المحيطة بعملية الإبداع، مع إعطاء فسحة للمبدع كي يختار من العطاءات المتاحة له لغويا كل على حسب ثقافته.

وبعد، فقد بلغ بي الجهد مبلغه، فإن أكن قد حققت بعض ما أصبو إليه، فذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، وإن كان قد كبا بي الحظ، فحسبي أني اجتهدت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المؤمنون.

د. حسن عبد المقصود
كلية التربية- جامعة عين شمس
مركز اللغات- جامعة بروناي دار السلام

المصادر والمراجع

=ابن سلام، القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد ت ٢٢٤هـ .

*غريب الحديث، تحقيق د. محمد عبد المعين خان، دار اتلكتاب العربي. بيروت. لبنان. ط١/ ١٣٩٦هـ.

=ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوَري ت ٢٧٦هـ.

*غريب الحديث، تحقيق د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني. بغداد. ط١/ ١٣٩٧هـ.

=ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ت ٧١١هـ.

*لسان العرب. بولاق. مصر

=الأخفش، سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي ت ٢٠٧هـ. تقريبا

*معاني القرآن، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب. بيروت. لبنان، ط١/ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

=بحيري، سعيد حسن

*علم لغة النص، الأنجلو. القاهرة، ط١/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

*نظرية التبعية في التحليل النحوي، الأنجلو. القاهرة، ط١/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

=البناء، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني ت ١١١٧هـ.

*إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط١/ ١٤١٩هـ - ١٩٩١م

=البهنساوي، حسام

*القواعد التحويلية في ديوان حاتم الطائي، د ت.

=حماسة، محمد حماسة عبد اللطيف

*بناء الجملة العربية، دار الشروق، ١٤١٦هـ - ١٩٩٢م.

=الراجحي، عبده علي

*النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة العربية. بيروت. لبنان،١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

=الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ.

*المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق محمد عبد المقصود، وحسن عبد المقصود، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني. القاهرة وبيروت ٢٠٠٠م.

=سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت ١٨٠هـ. تقريبا

*كتاب سيبويه، طبعة بولاق ١٣١٦هـ.

=السيد، محمد شفيع

*الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، دار الفكر العربي.القاهرة،١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

=عبادة، محمد إبراهيم معجم

*مصطلحات النحو والصرف والعروض، مكتبة الآداب ط٢/ ٢٠٠١م.

=عبد المقصود، حسن محمد، الحذف في كتاب سيبويه، ٢٠٠٣م.

=الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ت ١٧٥هـ.

*كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للنشر. بيروت.لبنان ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م.

=المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ت ٢٨٥هـ.

*المقتضب، تحقيق الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. لجنة إحياء التراث الإسلامي ١٩٦٥م.

=مصلوح، سعد

*الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب. القاهرة ط٣/ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

*في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، عالم الكتب. القاهرة.

= Roger Fowler

An Introduction to Transformational syntax, Rout ledge & Kegan Paul. London and Henley, 1981